نوادر التراث
٣



دراسة وتحقيق
عبد القادر أحمد عطا

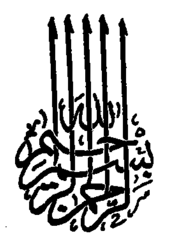
الطبعة الثانية
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار الاعتصام

صدر من هذه السلسلة

١ ـ أسرار التكرار فى القرآن للكرمانى	دار الاعتصام
٢ ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للخلال	دار الاعتصام

تناسق الدرر
في تناسب السور



إهداء

كنا جيلاً من الأجيال التى أدركت
أستاذيتك فى الأربعينات وتعلمنا منك
النظام فى العمل والفكر .. والدقة فى
البحث .. والحرية فى الرأى .
فأنت فينا جميعا أثر إنسى .. ونموذج
فذ من وقار العلماء الأكابر ..
فإليك أهدى ثمرة من ثمار غرسك ..
إلى أستاذى على محمد حسب الله
وفاء لعهدك .. وعرفانا بجميلك ..
وتسجيلاً لجهودك ..
أهدى هذا الكتاب

دراسة
في الوحدة الموضوعية للقرآن
وأسرار ترتيب النزول والترتيب في المصحف



عظمة القرآن ووحدته الموضوعية

قال الجن حينما سمعوا القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم : **(انا سمعنا قرآنا عجبا ٠ يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احدا)**٠ واهتزت عقيدة الشرك فى قلب رجل من صناديد الكفر هو الوليد بن المغيرة حينما سمع بعض آياته من الرسول فقال : « ما هو بقول البشر » ٠ وفزع أئمة الكفر من قريش حينما شهدوا تأثير القرآن على القلوب فقالوا لزعمائهم **(لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)** ٠ وسعى أهل النباهة من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « يا رسول الله ، علمنى من هذا القرآن » ٠ حينما استأسر قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الاسلام ٠

تلك واحدة من دلائل عظمة القرآن هى : سلطانه الروحانى الخفى على القلوب ، وولايته المطلقة على مدارك الانس والجن على السواء ، وجاذبيته المضيئة لقلوب المهتدين والجاحدين جميعا ٠

وقد يكون لبعض المكتوبات البشرية سلطان على المشاعر ، وجاذبية للنفوس ، ولكنها لم تصل فى ماضى الزمان ، ولن تصل فى مستقبله الى أعماق الروح ، ، ولا الى مستقر الايمان واليقين ، ولا الى قمة التضحية فى سبيلها بالمال والنفس كما وصل الرواد الأوائل للاسلام ايمانا بالقرآن ، ويقينا بسلطانه ، واستشهادا فى سبيل دعوته ، واحتمالا لما لا يطيقه بشر فى سبيل اعلاء كلمته ٠

تلك دلالة لا شك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ، وجبروت التعذيب الذى تسلطوا به على المؤمنين فى مطلع الدعوة ، فما لبثوا أن فجروا جديدا من ينابيع الايمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ،ووحدوا شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ، فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذى دارت رحاه على رمال جزيرة العرب ، والذى طاشت فى نهايته أحلام المعارضين على وفرة المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من المال ، واعواز فى السلاح يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وايمان راسخ بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت الى الأبد شوكة الكفر ، وشمخ الى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الالحاد الضارية فى ميدان الحرب وفى ميدان الفكر ، فلم تزده تلك الهجمات الا انطلاقا الى آفاق جديدة من الارض ، وانبلاجا لنوره على صدر الزمان ، وأعماقا بعيدة لجذوره فى القلوب . ولئن ذبلت فى بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارةالقرآنية تحت تأثير الصدمات المتواليه ، واستجابة المؤمنين الى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول الا غفوة أعقبها استجماع للقوة ، ورؤية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل الالحاد تمزق وخيبة وانحلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين الى ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن من تسلط قريش ، ومن جبروت الروم ، ومن جدل الفرس ، ومن سلاح الصليبية ، ومن لؤم اليهودية العالمية ، وأخيرا من بريق المذاهب السياسيه والاقتصادية واخصها الشيوعية اليهودية ، وكان من ابناء الاسلام أعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الأعزة على أوهام الشيوعيه ، فأعزوا فى سبيل ذلك أهل الاهواء ، ولكن أولئك جميعا ذلوا أمام صلابة الحق فى القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل الدولى عن النيل من ايمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذى لا يستطيعه الا الكتاب الحكيم : أنه كتاب حضارة تندرج تحت لوائه الأمم والشعوب ، وتستسلم حضاراتها لحضارته ، فما تلبث أن يحتويها الاطار الشامل للاسلام الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر

بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلا وحكما بين الجميع ، فلا عنصرية ولا عصبية ، ولا استمساك بالذات ، بل هو انكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيدا عن أى لون من ألوان الامتهان ·

فعظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدى الشعوب أن يتبعـــوه ، ولا الحضارات أن تذوب فى حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهـــه السمح الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دساتير الحضـــارة ، ويعلن حربه الضارية على الظلم وامتهان الانسان للانسان ، وامتهان الانســـان لنفســه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن عفن اللؤم البشرى ، وعن الحبائل التى ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون الله ورسوله لا لشىء الا لأن الايمان بهما يقف سدا منيعا أمام أطماعهم وشهـــواتهم التى لا تدع قيمة الا حطمتها ، ولا مثلا أعلا الا شوهته وأذلت أهله ، والداعـين اليه ·

وعلى مر القرون ما زال كبار المفكرين فى العـــالم كله يشيدون بتلك السمة التى استعصى عليهم الجهر بها هذا الردح الطويل من الزمان ·

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة فى بناء الحضارات اذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين جمهور المؤمنين · وهو الأمر الذى أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرصوا عليه ، وضمن لهم فى سبيل ذلك تمكينا سريعا ، وزحفا منصورا ، وعونا من جند الله يفوق كل قوة ، وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الالهى من القلوب حبا لا يقاوم للقرآن ·

وتدعيما لذلك فقد كان القرآن دستورا حضاريا للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكى الدقيق · والدليل على أن تحـــويل القرآن الى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعصا السلطان ، وانما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن ما رواه أبو عبد الرحمن السلمى قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا اذا تعلموا من النبى صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل · قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمـــل جميعا · ولهذا كانوا يبقون مدة فى حفظ السورة ·

وقال أنس بن مالك : كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جد فى

أعيننا • وأقام عبد الله بن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين •

ويضيق بنا المقام اذا استقصينا أقوال الصحابة في هذا الصدد ، ولكن الذى نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنيـــة فى الانتشـار والتأصل نابعة من هذا الينبوع العريق فى الاصالة ، فلا تتعثر الحضارات الا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدســاتير فى ذاتها ، أو فى اقناع الشعوب بجدواها ، وفى كلا الحالين تختلف الشعوب مع السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لا تسرع الحضارة فى سيرها نحو غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلا عن النفقات الهائلة التى يتطلبها ايقاف التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضى الى غايتها •

أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هـــذه الوجهة ، فالقرآن هو الفطرة البشرية التى لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع لجميع الناس بجدواه وعظيم عائدته ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة الملائمة لجميع الاجناس الى الدرس والتدبر الذى لا يزيد النـاس الا ايمـانا وامعانا فى استكشاف الحكم التى لا تنتهى ، ولا تضعف فى قوتها على كثرتها الكاثرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الاسلامية الى جانب الاقتناع به عاملا رئيسيا من عوامل السرعة فى البناء ، والقوة فى الأسس التى تقوم عليها الحضارة ، وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تتفرغ لارتياد آفـاق جديدة لاقامة صرح الاسلام على أرضها •

لقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى: **(كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته)** • ونعى على من لا يتدبرونه فقال : **(أفلا يتدبرون القرآن)**؟ ولا يمكن أن يكون التدبر الا مقرونا بفقه المعانى والاهداف والحكمة • ولهـذا لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معانى القرآن الا نادرا ، ولم يتهرب المخالفون للشريعة من الحدود المشروعة لأمثالهم ، بل تقدموا الى رسول الله صلى الله عليه وســلم طالبين اقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عـــن الاعتراف والمشروعـــة للتثبت من أهلية طالب الحد ، وجـــديته فى طلب التطهير من الذنب ، حيث وصل هذا التطهير الى الموت رجما بالحجـــارة ، وما كان ذلك الا لأن هؤلاء قد وصلوا الى درجة من الوعى القرآنى والاسلامى لم يصـــل اليها واضعو الدساتير الأرضية فضلا عن الشعوب المحكومة بها •

تلك عظمة لا تساق اليها الشعوب بالعصا ، وانما تقوم على رعايتها الشعوب بمحض الايمان والغيرة والعلم والتطلع الى مزيد من النجاح ، الأمر الذى استطاع به الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه بناء أعظم حضـارة عرفها التاريخ فى ربع قرن من الزمان ، لا يكفى لاصلاح مدينة واحدة تحت لواء دستور أرضى فى أى دولة من دول العالم ، وفى جميع أحقاب التاريخ •

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذى يفسر لنا الحوافز التى شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتالين له فى مختلف الاوقات لا سيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الانسان فى هذا الوقت الى درجة عليا من الصفاء الذى يهيىء لمن يصاحب القرآن فيه فهما لا يمكن أن يتيسر فى وقت آخر .. حتى لقد شجع النبى صلى الله علية وسلم من يقرأ القرآن بلا فهم تذرعا الى دفعه الى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريبا لهم على أن يألفوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره . وكان القرآن شرطا لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد الى ربه ، الى آخر ما هو مسطور فى السنة النبوية المشرقة ..

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن اجماع أهله حجة على الناس جميعا فى مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمى لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة الا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذى يتصل بالقرآن من دلائل حجية اجماع المسلمين على العالم قول الله تعالى : (**الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور**) . ولا خروج الى النور الا بالقرآن ، فاذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة اجماعهم اما بقاء الناس فى الظلمات ، واما اعادة الناس من النور الى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، اذ أن أمة القرآن بقيادة رسولهم صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الأئمة جاهدوا الناس لانقاذهم من شؤم الظلام الى وضح النور ، وما زال اجماعهم هكذا فى مجال الرأى والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان ذلك سلطانا من الله تعالى لهم أن يصيبوا الحق فيما كان معروفا أو منكرا عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معا أو يختلفون فلا يعدوهم الحق . وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : (**وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا**) . فالوسط : من يرتضى قوله . والشاهد : من يكون قوله حجة فى مجلس القضاء للفصل فى الخصومات ، وهو ايذان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وان كانت لأمة القرآن فانما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيمن على جميع الكتب ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفيصل بين الحق الذى هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولا تلك العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله فى

الدنيا ، والتي تتعدى الدنيا الى مجلس القضاء فى الآخرة حيث يشهد رسول القرآن على شهداء الامم جميعا ٠

وأخيرا فان اعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التى حار العلماء والمفكرون فى الكشف عنها ، وما زالوا يكتشفون منها كل يوم جديدا ، ولا يزالون كذلك ما دام القرآن متلوا أو محفوظا فى الصدور ٠

وليس القول بالاعجاز فى القرآن موجها نحو العجز عن فهمه بالقدر الذى تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيدا عن نطاق الفكر الاسلامى كهذا المعنى الذى لم يقل به أحد فيقيموا حوله سوقا لئيما من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم اعجازه من هذه الوجهة التى لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلا عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء فى نهاية تلك السوق نفى الاعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم فى الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الالسنة اسمه على اى صفة وأى صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات ٠

عظمة القرآن فى انه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذى يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الالهى ، سهل الاسلوب ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فاذا حاول عجز عجزا كاملا ، واعتراه النقص والتخبط مهما أجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الاسلوبية الناصعة الوضوح فى القرآن

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحا فى أن نسق القرآن مغاير تماما لنسق الكلام البشرى ، فما هو الا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحرا يؤثر ٠

قال الوليد لابى جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ٠ والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، ووالله ان لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه ، وانه ليحطم ما تحته ٠

فلما قال له أبو جهل : ان هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلا فلم يجد الا أن ينسبه الى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يؤثر) ٠ وبطلان نسبة القرآن الى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد اياه الى تلك القوة غير المنظورة يبطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة

العربية ـ على الأقل فى ذلك العصر وفى وسط الكفار الذين يتلمسون وجها للمعارضة ـ عن الاتيان بمثله • فهو وان لم يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلا كاملا ، بل أبقى من يستطيع السحر قادرا على مثله ، فقد زلزل بهـذا الرأى عموم القدرة الانسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالاعجاز اذا راعينا جانب الكفر واللدد فى الخصومة فى وزن هذا القول بميزان علمى دقيق •

ومن أحسن ما قيل فى تعليل اعجاز القرآن ما قاله ابن عطية فى مقدمة تفسيره (١/٢٧٨) : « ان الله قد أحاط بكل شىء علما ، فاذا ترتبت اللفظة من القرآن ، علم باحاطته أى لفظة تصلح أن تلى الأولى ، وتبين المعنى بعـد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن الى آخره ، والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم ضرورة أن أحدا من البشر لا يحيط بذلك ، فبهذا جـاء نظم القرآن فى الغاية القصوى من الفصاحة ، وبهذا يبطل قول من قال : ان العرب كان فى قدرتها الاتيان بمثله فصرفوا عن ذلك • والصحيح انه لم يكن فى قدرة أحد قط ، ولهذا ترى البليغ ينقح القصيدة أو الخطبة حولا ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا • وكتاب الله لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد •• وقامت الحجة على العالم بالعرب ، اذ كانوا أرباب الفصاحة ، ومظنة المعارضة » •

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سـيد عملهم ، فكان من المحال أن يطيقوا ثلاثا وعشرين سنة من التحدى ولا يعارضوه لو استطاعوا الى ذلك السبيل •

ونقل السيوطى عن حازم فى منهاج البلغاء ما يتم به كلام ابن عطيـة اذ قال : وجه الاعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها فى العالى منه الا فى الشىء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الانسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر لذلك الفصـاحة فى جميعه ، بل توجد فى تفاريق وأجزاء منه •

وأى عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرنا من الزمان والى أن يرث الله الارض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام فى هذا الموضوع فى عصرنا ضربا من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لئيمة يمارسها الاعداء من جبابرة اللؤم والخداع •

وقد فطن المرحوم الاستاذ الدكتور محمد أحمد الغمراوي فى الكتاب الأول من كتابه (الاسلام فى عصر العلم) الى دلالة نص من القرآن على عظمة القرآن واعجازه الذى لن يزال ماضيا فى الامم من وجهة نظر العلم • ذلك النص هو قول الله تعالى : **(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون)** • وقد لفت رحمه الله النظر الى كلمات (الفطرة) و (الناس) و (لا تبديل لخلق الله) • فالفطرة هى السنن الالهية الثابتة التى تقوم عليها الخلقة فى أصلها • والناس لفظ شامل لمن عاش ومن سيعيش على ظهر الارض من كل الشعوب والامم • وعدم التبديل يدحض زيف العلماء التجريبيين الذين يحلو لهم مهاجمة الاسلام وغيره من الأديان بالتعارض مع العلم ، وانما التعارض وقع فى تجاربهم لا فى السنن الثابتة التى لما يصلوا اليها بعد ، فظنوا القصور فى أصل القوانين ، بينما القصور ما زال فى عقولهم وتجاربهم •

ويقول رحمه الله : « ومن أعجب عجائب تلك الآية الكريمة وصف الاسلام – دين القرآن – بأنه نفس الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهذا شىء فوق العقل البشرى أن يتصوره ، فضلا عن أن يسبق اليه فى القديم والحديث ، والانسانية كلها الى الآن لا تعقل حتى امكان تحقيقه ، فلا فلاسفتها ولا مشرعوها يحدثون أنفسهم بالوصول يوما الى نظام ينطبق على الفطرة من جميع وجوهها ، والمسلمون فى شغل بما ينبذ اليهم الغرب من الآراء والمذاهب ، غافلين عن الكنز الذى بين أيديهم ، والنور الذى فوق أبصارهم ، والنعمة الكبرى التى من الله عليهم بها فى الاسلام » •

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعا بعد أداء وظيفتها فى اقامة الدليل على صدق أولئك الرسل • وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة ما بقيت الحياة ، فبه حياة القوب بالايمان ، وبه حياة الايمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الامثل فى تربية انسان الحضارة الامثل ، وبهذا الانسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والالحاد ، وما كانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها اما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم مردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وما كذلك معجزة القرآن التى بقيت لتحقق مزيدا من الاتساع فى قاعدة الايمان على مدى الزمان •

وحدة الموضوع فى القرآن

لا أريد أن أطيل القول فى موضوع تلاحم آيات القرآن من الوجهة التى طرقها الامام السيوطى ، وطرقها فى عصره الامام برهان الدين البقاعى فى كتابه (نظم الدر فى تناسب الآيات والصور) وهو موسوعة جيدة جدا فى ستة مجلدات مخطوطة ، كبار ، وطرقها حديثا المرحوم الاستاذ سيد قطب فى كتابه (فى ظلال القرآن) • وانما أريد أن أحدد القول فى وحدة موضوع القرآن من حيث هو قوانين فطرية تتدرج الى قانون واحد فطرى من وجهة الاجتماع البشرى ، لا يمكن بأى حال أن يتبدل ولا يتغير ، بل انه يحكم التصرفات البشرية فى كل مكان ، ويخضعها لسننه وتجاربه المنظورة وغير المنظورة فى ثنايا القرآن ، والتى تتنافر مع أهواء الناس ، وتتفق تماما مع الوعى العقلى الموصول بوعى البصيرة والروح ، أى الوعى العقلى المنفصل عن الهوى •

أقول : ان القانون الرئيسى الذى تدور حوله مواضيع القرآن الفرعية هو : أن الانسان عبد فقير مأمور محبوس فى مملكة عدوه • والله معبود غنى مانح للحرية من سجن الدنيا الى حقيقة الحرية فى جواره الأعلى • ولا تجد تشريعا فى القرآن وفى أى باب من أبواب الفقه الاسلامى الا وهو متصل بهذا القانون الرئيسى ، بحيث تتضافر التشريعات كلها لتحقيق هـذا الاصل وتحويله الى عقيدة شاملة هى (لا اله الا الله محمد رسول الله) •

ولقد جاء القرآن الكريم بهذا الاصل الفطرى مؤيدا بنصوصه فروعه الاربعة • فنحن نراه يؤكد عبودية الانسان وغيره من الكائنات فى نصوص أشملها قوله تعالى : **(ان كل من فى السموات والأرض الا آتى الرحمن عبدا)** ويؤكد فقر العباد بقوله : **(والله الغنى وأنتم الفقراء)** • وأكد أن الانسان خاضع للأمر وليس بآمر ولا حاكم بقـوله : **(ليس لك من الأمر شىء)** • **(وما تشاءون الا أن يشاء الله)** • الى آخر ما ورد فى القـرآن من الأوامر الموجهة الى الانسان على وجه الالزام • وأكد حبس الانسان فى مملكة عدوه بقوله تعالى : **(من كان يريد حرث الآخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب)** • فبين أن الدنيا للذين لا نصيب لهم فى الآخرة ، وهم أعداؤنا • وأيد هذا المعنى الذى يكون شطرا كبيرا فى العقيدة بقوله : **(ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضـة ومعارج عليها يظهرون • ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون • وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)** •

وآيات الله فى النفس اذا تأملها الانسان مجردا عن الكتب والرسالات السماوية تبينت له تلك القوانين الفطرية ، وتأكد له أن القرآن لم ينزل الا بهذه الفطرة التى هى الخلقة الالهية بقوانينها العلمية الثابتة التى يواجهها انسان العصر فاغرا فاه من الدهشة متصورا أنه على ضدها فى هذه الحياة ، لكثرة ما اعتراه من النسيان ، وصلابة ما غلف قلبه من رين الغفلة ، حتى ظن الباطل حقا والحق باطلا الا من عصم الله ، وقليل ما هم ٠

فالاجماع قد انعقد فى جميع الافهام على أن العبد : اسم خاص للمملوك من جنس العقلاء ، والمملوك : اسم لعاقل قهره غيره فاستولى عليه استيلاء السيد على العبد ، سواء أكان القاهر له انسانا مثله ، أو شهوة من شهواته ، أم طاغوتا من الطواغيت ، أم شيطانا من الشياطين ، أم هو قوة خفية لا يستطيع أن يميزها ، ولا يتبين لها وجها ولا جهة ٠٠ قاهرة عليا فوق كل القوى ٠

وتأمل الانسان فى نفسه دون تقيد بكتاب ولا رسول يؤكد له فى أصل الفطرة أنه عاقل مقهور بالتكوين والانشاء من العدم ، واذا كان مقهورا بأصل الفطرة على هذه الصورة فقد انعدمت فى فطرته المشيئة ، لأن المشيئة عبارة عن نهاية المالكية ، والانسان قد فطر على ضدها من المملوكية التى أوضحناها ، والدليل على فقدان الانسان للمشيئة من واقع سلوكه : أنه يشاء الكثير من الخير ، ولا يصيب الا المقدور له ، والمقسوم منذ الازل السحيق ٠

واذا تحققت العبودية فى فطرة الانسان ، وتحقق عدم أهليته للملكية كان فقيرا بفطرته ، والفقر يقتضى الحجر وعدم التصرف الا باذن وسلطان من المالك الحق ٠

واذا كان الانسان فى أصل الفطرة على ما وصفنا من العبودية والفقر يعيش على تلك البسيطة الهائلة من الارض ، ولا يستطيع النفوذ من أقطارها ، كان مقامه عليها على تلك الصورة بحكم الحبس للمحنة والابتلاء ، ولا يتصورها مملكة الا من عجز عن ادراك الفطرة ، واتخذ الهه هواه ، وادعى الحرية ، وعلا فى الارض علو الملوك على مدرجة الضلال ٠

والبلاء الذى يمتحن به الانسان هو اختلاف بنى جنسه حول تلك الحقائق الفطرية اختلافا هائلا ، ومن وجهات مختلفة ٠ فاختلف الناس حول الاذعان لتلك الحقائق ، أو ادعاء ضدها ، من الحرية ، والغنى ، والحاكمية ، والسيادة ، ثم اختلفوا حول الحق حينما اتفق بعضهم على أن عبودية الانسان جبلة فطرية فى أصل خلقته ، ثم اختلفوا طرائق وشواكل حول الغيبيات

كلها ، لا سيما البعث الذى شكل الخلاف حوله مذهبا دهريا يأتى على حكمة الفطرة من أولها الى آخرها • فكـــان بعث الرسل وانزال الـكتب ضرورة لا محيص عنها ، لاقامة الحجة ، وهداية الناس ، وحمايتهم من عواقب الخلاف حول الفطرة ، وان كان الخلاف فى أصله هو الآخر فطرة وسنة من سنن الله فى الخلق **(ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم)** • فان الكتب والرسالات كانت لقمع الجنوح النفسى تحت تأثير الخلاف الى فوضى مدمرة لا تبقى ولا تذر •

كان من أمهات المسائل التى عنى القرآن بفصل القول فيها : مســألة العبودية لله ، ومسألة البعث للجزاء والكشف عن الحقيقة العظمى التى اختلف حولها الانسان فى عالم الجسد المادى بما له من مقتضيات الخلاف واللدد فى الخصومة ، وتلك الحقيقة العظمى هى الوجود الالهى ، واذعان كل الكائنــات لسلطانه طوعا أو كرها ، ولذلك ارتبط اثبات البعث باثبات الوجود الالهى، واثبات الدلائل على شمول علمه وقدرته ، وارتبط كل ذلك بأصل الفطرة على الوجه الذى بيناه فى هذه العجالة ، وكان من تلك المسائل شطر كبير من القرآن ، تبعا لجهل أكثر الناس بها ، ونسيان فطرتهم وهم يحاولون علمها ، وتشددهم فى انكارها أو الغفلة عنهــا **(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون • ليبين لهم الذى يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين • انما قولنــا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون)** •

فلما كان الخلاف مركوزا فى الفطرة ، لم يكن هناك سبيل الى ادراك حقيقة البعث المؤكد للحقيقة الالهية العظمى الا حين يرتفع الخلاف بنقل الحياة الى صورة أخرى ذات فطرة لا خلاف فيها ، فيتحقق وجود حالة من الحياة مغايرة لتلك الحياة التى يحياها الانسان فى الدنيا ينكشف فيها الغطاء ، ويحــد البصر ، فيرى ما لم يكن يراه من قبل **(ونزعنا ما فى صدورهم من غل)** • فلا خلاف ولا تطاحن حول الحقائق •

ويطول بنا القول لو ذهبنا نستقصى منهج القرآن فى اثبات هذا الشطر من فطرة الانسان ، ولكننا نشير الى قسم آخر من أقسام تلك الفطرة ، هو الحرية الانسانية التى ترتبط هى الاخرى بموضوع البعث ارتباطا وثيقــا بحيث تشكل معـــه ومع العبودية والفقر الى الله موضــوعا واحدا ، يتصــل بموضوعات أخرى فرعية هى مقومات أو شواهد على صـــــدق تلك الفطرة الالهية الحكيمة ، وتستغرق شطرا كبيرا من القرآن •

لا حرية مطلقة للانسان فى هذه الدنيا • هكذا تنطق شـــواهد الفطرة التى جبل الله عليها الانسان ، وقامت عليها الشواهد فى شريعته مما يمارسه نفس ذلك الانسان الذى يدعى لنفسه الحرية والسيادة والغنى وهما وسرابا لا حقيقة له فى الذات ولا فى الصفات • كما قرر القرآن •

والنموذج الواضح الذى يمكن الوصول من خلاله الى هذه النتيجـــة الفطرية هو : الغنى الذى ساد الناس بزعمه من جبابرة المال وملوك الارض ، حتى ملك العبيد ، وخضعت له الرقاب ، وجمع الجنـــود ، واستولى على الارض ، فما له من منازع فى أمر ، ولا معقب فى رأى ، مطاع على عزة وامتناع فى أنظار العامة من غير المستبصرين الباحثين عن الحقيقة فى أصل الفطرة •

ويقول الامام أبو زيد الدبوسى ردا على تلك الدعوى العريضة : ان هذا المدعى للحرية والملك ما استقر سلطانه ، وعلا مكانه بفطرته ، وانما بجنوده، وبأس عبيده ، لا يستغنى عنهم ساعة لاستدامة ما هو فيه ، فهـــو يطلبهم بهواهم ، وينيلهم مناهم ، صدقا برغبته فيهم ، والناس يطيعونه رياء لخوفهم منه ، أو طمعا فيما فى يده ، وهو يطيع هوى من دونه ، وهم يطيعون من فوقهم ، وطاعته لهوى الناس ضرورية ، وطاعة الناس له ليست ضرورية ، لبقاء منزلتهم فى أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وال ، غير أن طاعة الناس له بأجسامهم ، وطاعته لأهوائهم بقلبه فاستترت وما ظهرت الا لأهل البصائر •

ويمضى الامام الدبوسى فى بيان العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع ممن يدعون الحرية والغنى : فعميت وجلست على سرير العبودية للعبيـــد ، وكان ائتمارك للجنود ، وأحاطت بقلبك المكاره والآفات ، وظننت أنك ملك ، هيهات • ما أنت الا مأمور حشمك ، والرعية مأمور ملكهم ، غير أن النفس لبست عليك مقام الائتمار بمسارعتك الى الفعل قبل الأمر •

ويمضى الامام الدبوسى فى بيانه العجيب الى أن يقول مخاطبا هذا النوع من الناس فيقول : ان تصرفك فى أموالك كلها متردد بين جائز مأمور به ، وفاسد منهى عنه ، وما هكذا علامة الملك والقهر ، لكنه عـــلامة الاذن على الفقر • غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك ، وقرن بقاءك بغذائك ، وخلق مما فى الارض منفعة لك الى وقت انقضائك ، فقسم لكل عبد نصيبا مفرزا ، كيلا يتغالبوا فيتفانوا ، وجعل عليهم من أصلحهم قيما وهو السلطان، فهم يتمتعون بالانصباء من يد القيم من أحوال طفولتهم وصـــغرهم ، فاذا عقلوا سلمت اليهم الانصباء لحق الاذن فى التجارة دون اثبات الملك ، فاذا بلغوا وكملت الحالة ، ضربت عليهم الضرائب للمولى ، وخوطبوا بأدائها مدة

الحياة ليعتقوا اذا أدوا ، وسلمت اليهم للحال الانصباء لحق الاذن تسليم يد ، ليتصور الأداء بحكم تباين الايدى ، وان لم يكن فى الحقيقة ملكا للمؤدى ، حتى لم يملكوا من أموالهم الا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد .

وهنا يتصل هذا الموضوع بموضوع الرق فى القرآن والشريعة بعد ما انحسم القول فى مشكلة الملك والحرية ، والنصوص القرآنية المتعارضة فى الظاهر ، من حيث يثبت الملك فى بعض النصوص للانسان ، ويرجع الملك كله لله وينتفى عن الانسان فى النصوص الأخرى ، ثم يتصـــل الموضـوع الواحد للقرآن بالتشريعات المالية وفروعها تحقيقا للملك الالهى والقدر المتاح للعباد بالتصرف ، ثم بموضوع البقاء الانسانى بالتكاثر بعد ما بقى المال ، وما يتبع ذلك من أبواب التشريع ، ثم بموضوع المجتمعـــات الانســانية وحضاراتها التى لا تزدهر الا تحت الأمر الالهى ، ولا تندثر الا تحت التمرد على تلك الأوامر ، وبموضوع القصص القرآنى وتوجيه النظر نحوه فى حركة التاريخ تحقيقا لهذا الأصل الفطرى الذى تدرج حتى وصل الى قاعدة أوسع يحتمل فيها النسيان ، ولهذا شرعت العبادات والذكر لدوام التذكر .

ولا يخلو موضوع من موضوعات التشريع من دليل واضح على تلـك الفطرة الثابتة . وخير ما يمكن أن ندرك من خلاله موضوع الحرية الانسانية هو موضوع الرق وما يتصل به من تشريعات . اذ أن الرق والعبودية لما كانا من فطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها ، وأن الملكية للانسان فى الدنيـا ما هى الا ابتلاء ينال الانسان من خلالها ومن خلال الأوامر المتصلة بها حقيقة الحرية ، فقد شرع الله من التشريعات السلوكية فى هذا الصدد ما تتضح به تلك الفطرة لكل ذى عينين .

يملك الرجل أخاه ملك يمين بسبب مشروع هو أن يكـــون أو أحد أصوله ممن تمردوا على دعوة العبودية لله بالسلاح فأسروا فى الحرب الدينية، ولـكن رحمة الله اقتضت أن يشرع له وجه من وجوه الحرية هو (المـكاتبة) والـكتابة باب واسع فى الفقه الإسلامى ، يشترى العبد حريته من سـيده بمـال معلوم ، ولمـا كان العبد لا يملك ، فقد ندب السيد إلى أن يأذن له ز العمل بجزء من المال احسانا ، ويتصرف العبد بقدر ما انفك عنه الحجر ، كأنه مالك وليس الا عبدا ، فاذا أدى عتق ، واذا عجز بقى عبدا ومن هذه القضية التى يمارسها الانسان بأمر الله يمكن الفصل فى قضية الحرية الكبرى على المستوى الغيبى ، بعد دراستها على المستوى المشهود .

فالحرية الممنوحة من الله تعالى لعباده الذين أدوا ما وجب عليهم فى دار الابتلاء تشمل الذات فى الدنيا والصفات فى الآخرة جميعا ، ويشهد لذلك

قوله تعالى عن هؤلاء الاحرار فى دار النعيم : **(لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد)** • فما يريده هؤلاء الاحرار يتحقق بمجرد المشيئة ، وتحقق المراد بمجرد المشيئة وان كان حقا لله فقد أكرم الله به عبده المطيع بتكوين ما يشاؤه •

فاذا كانت الحرية فى الدنيا هى خلاص حق الحر فى نفسه وماله ، فما لأحد على الفائز بالجنة حق فى شىء من أحواله ، فيكون عبدا فى ذاته من حيث التكوين ، عتيقا فى أفعاله من حيث الانعام والتكريم • وهكذا يكون مثل ما فى التشريع ، وصلا بين حياتين يدرك المستبصر من خلالهما كل أسرار الفطرة التى لم يخرج عنها القرآن فى أى موضوع فرعى من مواضيعها • ومن هذه النافذة يمكن أن تتصل موضوعات القرآن فى وحدة متماسكة لا خلل فيها •

وجانب آخر متلاحم مع هذا الأصل الفطرى الذى دار حديثنا حوله ، ودارت حوله الكثير من آيات القرآن الكريم هو : العدل باعتباره الفطرة التى بنى الله تعالى عليه هذا الكون المنظور وغير المنظور ، وردنا من خلال تلك الفطرة الى موضوع المعبود الحق الذى تقوم على أساسه الحضارة القرآنية ، والدعوة العالمية الى الاسلام ونجاحها اليقينى من حيث تعثرت خطا الدعاة فى عصرنا الحاضر حينما أخلوا بتلك الفطرة •

وأصل هذا الجانب الرئيسى : أن الله عزت قدرته علق بقاء الأنفس بالمال ، وعلق بقاء الجنس بازدواج الذكر بالأنثى ، فأنت ترى أن أسباب البقاء والتكاثر هى شهوات الطبيعة التى فطر الله الناس عليها ، لتكون تلك الشهوات سائقة الى أسباب البقاء ، ثم أعلن سبحانه أنه ما خلقهم للاستغراق فى تلك الشهوات ، بل ليوحدوه ويعبدوه بأمره على خلاف الطبع ، ولهذا نرى القرآن يدعو الى العمران ويشرع النكاح ، وينعى على من يحرم الطيبات من الرزق ، وفى الوقت نفسه يمقت الترف والاغراق ، ويدعو الى ايثار الآخرة على الأولى ، ويعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى ، فى مقابلة تعليق الحاضرة على الشهوات والهوى • وهنا كان الابتلاء الذى لا ينجو الانسان منه الا بالعدل واقامة الموازين الدقيقة فى شئون المال والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء •

عدل الانسان مع نفسه ، فلا ينساق الى الترف فى الجسد والعقل ، وعدل الانسان فى علاقته بربه ، فلا تطغى عليها الدنيا بشهواتها ، ولا تطغى العبادة على العمران ، وعدل الانسان فى علاقته مع غيره من بنى جنسه ، ابقاء على الاخوة الضرورية لنجاح الأمة فى شريعة الجهاد فى سبيل الله ، وقد

أفاض القرآن فى هذه المواضيع ، وربطها بما أشرنا اليه من مواضيع فى شطر كبير جدا من آياته .

وغاية العدل : أن يصل الانسان الى أن كل سلطان عليه غير سلطان الله فهو شرك وضلال ، وكل عبودية لسواه ذل ، وعلى الانسان أن يوفق بين ارتباط مصالحه الدنيوية بغيره من الناس وبين العبودية لله ، فلا يمنح الانسان أكثر من حقه فى أنه عبد مسخر للعمل وتبادل المنافع مع غيره ، ولا يتحدث عن الخالق الاعلى حديثه عن العبيد ، ولا يخلط بين الفانى ومانح الحياة .

وعلى هذا النهج تخلص عقيدة المؤمن من الشرك الخفى والجلى ، وعلى العكس اذا اختلت موازين العدل بين الانسان ونفسه ، فمال الى الشهوات ، فانه حينئذ يصبح انسانا مختلا فى توازنه بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، ويضعف أو ينعدم شعوره بسلطان الله وقهره ما دام مقهورا للشهوة ، مدفوعا بسلطان المال ، ومن هذا تكون الفوضى ، ويتحطم بناء المجتمع باختلال نظام الاسرة .

فالانسان لا يصبح سويا صالحا لممارسة شعائر الايمان الحق كما يريده الله تعالى الا اذا عدل بين مطالب جسده ، ومطالب عقله ، ومطالب روحه . فمطالب الجسد : ابقاؤه حيا متكاثرا دون سرف ولا تقتير ، ومطالب العقل : النظر فى العلوم والمعارف التى تؤدى الى رقى الانسان وتساميه عن وحل الانحراف ، ومطالب الروح : وصلها عن طريق العبودية والعبادة بمصدر الوجود الحق ، واسناد التوفيق اليه ، والبراءة من الحول والقوة ، والفرار اليه فى كل المهمات .

وظلم الانسان لنفسه فى جانب من الجوانب الثلاثة ينتهى به الى مرتبة الانعام حينما يعبد هواه ، والى الشرك حينما يصبح الظلم عظيما بالغفلة عن الله ، وعن مراقبته ، ومراقبة انعامه ، ونسبة شيء من ذلك الى العبيد باللسان أو بالوجدان أو بالعمل .

ولقد بث الله تعالى تعليمه للمؤمنين وحدة الموضوع القرآنى عن طريق العدل فى المطالب البشرية الفطرية فى مواضع كثيرة من أظهرها أوائل سورة الروم .

فقد افتتحها الله تعالى بتذكير المؤمنين بأن النصر من عند الله ولكنهم لا يعلمون ، لانهم يغفلون عن مطالب الروح فلا يعلمون الا ظاهرا من الدنيا . ثم أرشد الى منهاج الوفاء بمطالب العقل والروح ، ووجه الانظار الى التفكر فى أنفسهم وفى خلق السموات والأرض بالحق لعاقبة الجزاء ، والى دراسة تواريخ

الأقدمين من جبابرة الكفر ، وكيف انتهى بهم الحال الى ذل مقيم • ثم وجه الأنظار الى استمرار خط الحياة بعد الموت ، وبسط القول فى الثواب والعقاب ، وأمدهم بمادة التفكر الموصلة الى حقيقة الايمان والتوحيد ، وكيف أن الملك الحق يفعل ما يريد •

ثم انتهى القول الكريم الى مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهه نحو عناصر الفطرة فى هذا البيان الحكيم فقال تعالى قولا فصلا فيه كل العلم لأهل البصائر والذكرى :

(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون • منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين • من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون – ٣٠ – ٣٢) •

وهذا هو الموضوع الواحد الذى شرحه القرآن ، وعرضه على مختلف المناهج حتى يستحق وصف الله تعالى له بأنه كتاب البشرية كلها ، جاء به رسول الله الى الناس كافة فى كل العصور والأجيال •

فسبحان الله الذى أقام بالعدل والقسط والميزان هذا الكون الهائل ، وأنطق بالعدل حركات الكواكب ، ودرجات الحرارة والبرودة ، وموج المحيط ، وهدير السحاب ، وسوق الماء ، واضطراب الارض بالنبات ، وكل سر لله فى خلقه منظور ومحسوس ومغيب عن مدارك الانسان ، وربط بين العدل والفطرة ، وربط بين الفطرة والقرآن ، وأنزله كتابا واحد الموضوع •• كتاب الهدى والتوحيد والفطرة •

ترتيب القرآن

ترتيب النزول :

يختلف ترتيب القرآن فى النزول عن ترتيبه فى المصحف اختلافا كبيرا ومنشأ هذا الاختلاف هو اختلاف الهدف المقصود من كلا الترتيبين ·

ومن المعلوم أن القرآن الكريم نزل منجما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عشرين سنة ، أو ثلاث وعشرين سنة ، أو خمس وعشرين سنة ، على حسب الخلاف فى اقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ·

والذى يلقى الضوء على حكمة انزاله مفرقا فى هذه المدة الطويلة ما أخرجه البخارى عن عائشة قالت : « انما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى اذا ثاب الناس الى الاسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شىء : لا تشربوا الخمر · لقالوا : لا ندع الخمر أبدا · ولو نزل : لا تزنوا · لقالوا : لا ندع الزنا أبدا » · واذا تدبرنا الناسخ والمنسوخ من مكى القرآن تبين لنا مدى علم عائشة رضى الله عنها بحكمة ترتيب النزول ·

فالمقصود الرئيسى هو مراعاة حاجة الدعوة الى الدين الجديد من الوجهة التربوية الالهية الخالصة ، والتدرج بالناس شيئا فشيئا حتى يتم المراد من اكمال الدين ، وتمام النعمة ، دون أن تكون هناك عوائق نفسية تعوق الانسان السوى عن متابعة التنزيل ، وتدبر معانيه ، والاقتناع بمراميه ، والعمل بما تضمنه من أحكام ·

وآية ذلك أن الفترة المكية على طولها لم تكن التعاليم القرآنية فيها متجهة الا الى بناء العقيدة وترسيخها فى أعماق الوجدان ، ولم يشرع من العبادات فيها الا الصلاة ، باعتبارها تجديدا دائما ومتكررا لقوة العقيدة وفاعليتها ، وما ذاك الا لأن العقيدة هى قوة الدفع للانسان المؤمن نحو الطاعة المطلقة لله فى الأمر والنهى ، وآية صدق هذا المنهج التربوى : ما أنجزه الرعيل الأول فى المدينة من أعمال عظمى ، يعجز عنها انسان ذو عقيدة لا تتسم بالأصالة والرسوخ والعمق واليقين ·

فالقرآن على منهج النزول هو منهج دعوة لتأسيس دين بين قوم لا يدينون بالحق ، ومنهج تربية لأمة مختارة ومصطفاة لنشر هذا الدين

بمختلف الوسائل المشروعة للدعوة ، ومنها الجهاد بالسيف الذى نسخ كـل الوسائل السابقة ، ومنها الصبر على ما يصيب الدعاة ، والـدعوة باللين والحسنى .

ومن أسباب تفريق القرآن فى النزول ما ذكره الله تعالى ردا على الكفار **(وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)** . أى : كما أنزلت الكتب على من قبله من الرسل . فأجابهم الله تعالى بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم : **(كذلك لنثبت به فؤادك)** .

وتثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم فسره أبو شامة بقوله : ان الوحى اذا كان يتجدد فى كل حادثة كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل اليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان أجود ما يكون فى رمضان ، لكثرة لقائه جبريل .

ولا يخرج هذا التعليل عن المصلحة العنيا للدعوة الناشئة ، ولكن فى شخص الداعى الأعظم ، بما يتناسب مع المهمة العظمى التى أمر أن يصدع بها ، ويجاهد الأمم من أجل ارساء قواعدها . وفى قوة الداعى قوة لأتباعه ما فى ذلك جدال .

كما أن هذا المنهج النزولى كذلك فيه تثبيت لأفئدة المؤمنـين ، باثارة تطلعاتهم الى الوحى ، والى ما ينزل به حلا لمشكلاتهم ، وفصلا فى قضاياهم ، حيث كان يتوقف فيها الرسول كثيرا حتى ينزل فيهـا قرآن ، وفى ربط الوجدان والعقل بالوحى على هذه الصورة مذاكرة نفسية للعقيدة أبلغ من كل كلام فى موازين التربية التعليمية فى أسمى قيمتها ونجاحها .

وقالوا كذلك أن تثبيت فؤاده صـلى الله عليه وسـلم بانزال القرآن مفرقا : أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق عليه ليثبت عنـده حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء فانه كان قارئا كاتبا .

وقالوا : ان القرآن فيه الناسخ والمنسوخ ، ولا يتأتى ذلك الا فيمـا أنزل مفرقا .

وقالوا : ان منه ما كان جوابا لسؤال ، وما كان انكـارا على قول أو فعل ، فنزله جبريل بجواب كلام العباد وأفعالهم ، وقد فسر ابن عباس بهذا المعنى قوله تعالى : **(ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تأويلا)** .

ولا تخرج هذه الأقوال الثلاثة كذلك عن مصلحة الـدعوة فى حفظ النصوص القرآنية التى تعتبر دستور الدين الجـديد ، وفى الاسـتجابة للمتطلبات الواقعية لتربية خير أمة أخرجت للناس ، اقرارا لما يتفق مع قوانين الفطرة الثابتة ، وتقويما لما انحرف عنها بتأثير الهوى وتقاليد الجماعة الموروثة التى لا تخضع للحق من حيث هو حق .

ومن أهداف نزول القرآن مفرقا : تجدد الحوافز التى قررها الله تعالى للدعاة فى كل العصور والاقطار ، وللدعاة الأوائل بصفة خاصـة ، اذ كان هناك حوافز للدعاة لا يظهر أثرها الا فى الدار الآخرة ، كالصبر على الأذى ، وتوفية الصابرين أجرهم بغير حساب ، وجزاء الشهداء عند الله ، وما شابه ذلك من الحوافز . وكان هناك حوافز تبشر المؤمنين الدعاة على قلتهم وضعفهم فى المال والسلاح بالانتصار واذلال جبروت العدو ، حتى يكون ذلك أدعى الى صلابة العزائم ، والاصرار فى المضى على الطريق ، لا سيما وأن تلك الحوافز كلها قد تحققت من الوجهة القرآنية ، فانعكست فى السنة النبوية تعميقا وتوسيعا لمفهومها ، بالبشريات التى زفها الرسول صلى الله عليه وسلم لاتباعه بالانتصار على مملكة فارس ، وبدوام النصر والفتح ما عاشت شريعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

كان الرسول وأصحابه يلوذون بالصبر على الأهوال فى مكة ، فأنزل الله تعالى : **(سيهزم الجمع ويولون الدبر)** . قال عمر بن الخطاب : فقلت : أى جمع هذا ؟ فلما كان يوم بدر ، وانهزم المشركون نظرت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم مصلتا بالسيف ويقول : (سيهزم الجمـع ويولون الدبر) . فكانت ليوم بدر .

ومن هذا الباب قوله تعالى : **(لا أقسم بهذا البلد . وأنت حل بهـذا البلد)** . فهذه السورة مكية ، وقد نزلت والمسلمـون فى كرب الاضطهاد والحصار الاقتصادى الرهيب تبشرهم بالفتح فى صورة احلال البلد الحرام لقائد الدعوة صلى الله عليه وسلم . وقد ظهر أثر هذا الفتح وذلك الحل فى قوله صلى الله عليه وسلم عن مكة : « أحلت لى ساعة من نهار » .

بل لقد كان هناك حافز أشمل من كل تلك الحوافز ، وأشد قوة فى رفع الهمم ودفعها الى اقتحام أشق العقبات ، وذلك فى آية النحل التى تبشر تلك القلة المستضعفة فى مكة بملك عظيم ، وعلاقات دولية واسعة ، شرع لهم عند قيامه ألا ينقضوا العهود ايثار للمال او القوة فى قوله تعالى :

(ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) .

ومع ذلك فلم تفقد هذه الآية فاعليتها فى مكة ، بل كان التدريب على تحقيقها ماضيا فى تنفيذها عند بناء التجمعات الاولى ضد الكفر ، على ضيق نطاقها ، ولكنه وسيلة تعليمية ناجحة كل النجاح على أى حال ، عمقتها السنة فى التبشير بالفرج والنصر ٠

لم يكن من سواء السبيل اذن أن ينزل القرآن جملة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يؤسس دعوة الرسالة الخاتمة ، ويقيم صرح الدين الشامل للناس جميعا ، ويربى جيلا فريدا من فقهاء القرآن ، وحفـاظ الشريعـة ، وشيوخ الدعوة ، وفرسان الجهاد ، والمعلمين الاثبات لكافة الأجيال ٠

وكان من عيون الحكمة أن ينزل القرآن هكذا منجما يجمع بين الحوافز وقوى الدفع الأخرى ، كما يتيح الفرصة الكاملة للدعاة الأوائل أن يستوعبوا القرآن حفظا ودرسا وسلوكا ، وتربية للضمائر والقوى الوجدانية الأخرى اللازمة لنجاح خير أمة أخرجت للناس ٠

وفى انزاله منجما كذلك دليل لا يرقى اليه الشك على أن القرآن كلام الله ، وليس من كلام البشر ٠ وذلك : أن السورة كانت تنزل بمكة الا آيات منها ، كسورة الأنعام ، قال ابن عباس : نزلت بمكة ، الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة : (**هذان خصمان** ٠٠٠٠) الآيات الثلاث ٠ وسورة السـجدة أيضا نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلن بالمدينة هى : (**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا** ٠٠٠) الآيات الثلاث ٠ وسورة الزمر نزلت بمكة الا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة فى وحشى قاتل حمزة : (**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم** ٠٠٠) ٠ الآيات الثلاث ٠

ووجه دلالة هذا التفريق فى النزول على أن القرآن كلام الله وليس كلام بشر على الاطلاق : أن عقلا بشريا مهما أوتى من القوة والحفظ والاحكام لا يستطيع أن يذكر موضع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات طويلة ، فيضعها فى مكانها ، بحيث تلتحم مع سابقاتها ولاحقاتها فى اللفظ والمعنى والسياق ، ولو أن عقلا اتقن ذلك فى حالة واحدة ، فلن يستطيع أن يحكمه فى حالات كثيرة وفى سور كثيرة بحيث لا تشذ حالة واحدة عن قاعدة الاحكام المشهودة فى كتاب الله الحكيم ٠

لقد حدثت تلك التجزئة فى النزول باستثناء آية وآيات من سـورة لتنزل بعد نزول أجزاء تلك السورة بسنين طويلة ـ حدث ذلك فى سورة البقرة ، والأنعام ، والاعراف ، والأنفال ، ويونس ، وهـود ، ويوسف ، والرعد ، وابراهيم ، والحجر ، والنحل ، والاسراء ، ومريم ، وطه ، والأنبياء ،

والحج ، والمؤمنون ، والفرقان ، وتسع وعشرين سورة أخرى ، ومع ذلك فقد وضعت الآيات التى تأخر نزولها من تلك السور فى أماكنها ، متلاحمة تمام التلاحم مع سوابقها ولواحقها ، فلا تنافر بينهـــا فى المعنى ولا فى جرس الكلام ، مما يحقق ويؤكد ما جاء فى السنة مجمعا على صحته من أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يضع تلك الآيات وغيرها من آيات السورة التى كانت تنزل نجوما متتابعة فى أماكنها بتوقيف من الوحى ، اذ كان يقول صلى الله عليه وسلم لكتاب الوحى : ضعوا هذه الآية أو الآيات بين آية كذا وكذا من سورة كذا .

ولنأخذ مثلا واحدا من سورة الزمر للدلالة على صـحة هذا القول . فهذه السورة نزلت بمكة الا قوله تعالى : (**قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم**) الى (**من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون**) . فانها نزلت بالمدينة ووضعت فى مكانها فتلاحمت مع الآيات تلاحما عجيبا لا يكون أبدا الا عن توقيف من الوحى وصار وضع الآيات بعد ذلك على الوجه التالى :

(أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعـــا انه هو الغفور الرحيم . وأنيبوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغته وأنتم لا تشعرون . أن تقول نفس ياحسرتا على ما فرطت فى جنب الله وان كنت لمن الساخرين) .

فنحن نرى أن بسط الرزق والتضييق فيه مظنة الاسراف على النفس ، ففى حالة البسط بالترف ، وارتكاب الموبقات ، وفى حالة الضيق بالعدوان للحصول على المال ، فاقتضت الرحمة الالهية فتـــح باب التوبة للمسرفين وتحذيرهم من التسويف بها خشية حلول العذاب المفاجىء ، فيندم المذنب لتفريطه وسخريته بالأمر الالهى .

فهل ترى تلاحما أبدع من هذا التلاحم ؟ ولكنه نبى ورسول ما ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم .

بل انك لا تعدم التلاحم بين الآيات دون أن توضع تلك الآيات الثلاث المدنيات فى مكانها . فبسط الرزق واقتاره داعيان الى الندم والحسرة حينما ينحرف الانسان بدافع منهما أو من أحدهما عن الصراط السوى ، ولهذا عقب الله قوله فى بسط الرزق واقتاره بقوله : (**ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون**) . وذلك شاهد عظيم لعظمة الترتيب القرآنى على أى وجه ، وتفسير

لقول عائشة رضى الله عنها لأحد المسلمين : « لا يضرك آية آية قرأت قبل » • وتفسير لاقرار النبى صلى الله عليه وسلم بلالا حينما سمعه يقرأ من هذه السورة وهذه السورة بلا ترتيب • ولكن الترتيب على وجهيــه النزولى والمصحفى أحكم وأبلغ وأدخل فى باب الاعجاز لذى بصيرة واعية •

ومن عجيب ما قاله سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام ونقله عنه الامام السيوطى فى الاتقـــان : ان ربط آيات القرآن على ترتيب نزولهـــا تكلف لا يليق • اذ أنه يشترط فى حسن الكلام أن يقع فى أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فان وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ، ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه الا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه ، فان القرآن نزل فى نيف وعشرين ســـنة فى أحكام مختلفة ، شرعت لأسباب مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض •

وقد رد الشيخ ولى الدين الملوى عن هذا الزعم بقوله : قدوهم من قال : لا يطلب للآية الكريمة مناسبة لانها على حسب الوقائع المفرقة • وفصل الخطاب : أنها على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا •

ونقول : ان استعراض آيات القرآن حسب ترتيب نزولهـــا هو عين الحكمة ، كما قلنا آنفا ، ونزيد هنا أن نعرض نموذجا واحدا يقيس عليه الباحث عن حكمــة الترتيب وأسراره فى ترتيب النزول ، وذلك من الآيات الأولى فى النزول •

فأول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة (العلق) • والمجموعة الأولى من آياتها التى أنزلت عليه أولا هى من أولها الى قوله تعالى : (**علم الانسان ما لم يعلم**) • ولما كانت هذه السورة مكية ، وقد تأخر نزول باقيها عن نزول سورة المدثر فانا سنكتفى بالآيات الأولى منهـــا ، ثم ننظر حكمة ترتيبها مع ثانية السور نزولا وهى سورة المدثر ، ومع ثالثة السور نزولا وهى سورة (القلم) التى نزلت بمكة الا قوله تعالى : (**انا بلوناهم**) الى (**يعلمون** ــ ١٧ ــ ٣٣) وقوله تعالى : (**فاصبر لحكم ربك**) الى (**الصالحين** ــ ٤٨ ــ ٥٠) ومع رابعة السور نزولا وهى سورة (المزمل) المكية النزول ، ما عدا قوله تعالى : (**واصبر على ما يقولون**) الى (**ومهلهم قليلا** ــ ١٠ ، ١١) •

فلما كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعده الله تعالى لأعظم رسالة من حيث عمومها وشمولها ، وما شرع لها من وسائل الدعوة ، ومنها الجهاد بالسيف والعلم ، وما قامت عليه من أساس التوحيد فى العقيدة ، فقـــد

اقتضى هذا التكليف الهائل علما ومعرفة من معين آخر غير المعين الذى يتلقى عنه الناس علومهم ومعارفهم ، هو المعين الالهى الغيبى الذى يفيض على من أسلم وجهه لله ، فيقوم من شطط العقل ، ويحد من شطح الوجدان ، ويصحح ما فى قضية الايمان بالغيب من انحرافات سيطرت على عالم الشرق الأقصى ، ى : هو المعين الذى يجب أن تقاس به معارف الناس ، ولا يصح أن يقـاس هو بمعارف الناس ، ويجب أن تدور حوله الأفكار تلتمس فيه الحق ، ولا يجوز أن يدور هو حول أفكار الناس ليحقق ظنون العقل ، وأوهام الهوى ٠

لقد أمر الله رسوله ، وكلفه أن يعلم الناس أن الله هو مصدر العلم ، والموفق الى صحيح المعرفة ، فهو خالق الانسان ، ومعلمه ما يخطه بقلمه ، وما يعلمه بعقله ، مما هو متاح له من وسائل المعرفة المنظورة ، ومما لم يتح له من وسائلها الغيبية التى لا ينالها الا بعد أن يؤمن بالغيب ، ويصل روحه ووجدانه بالغيب ٠

وسواء مضينا مـع السورة لنعلم منها نموذجا من ضلال الانسـان الفكرى حينما يطغى اذا استغنى ، بدلا من أن يشكر ، حتى يبلغ من طغيانه اذا استغنى بالماديات أن ينهى الناس عن دعاء الله ، ليصدهم عن الايمـان بالغيب ، ليجعل من نفسه الها وطاغوتا يحكم جهلاءهم ، فان السورة تتلاحم بجزئها الأول وجزئها الثانى مع سورة المدثر ، ثانية سور القرآن نزولا ، مؤيدة ما قلنا من أن ترتيب النزول يساير حركات النفس الانسانية وتفاعلها مع الدعوة الجديدة بالدفع الى الأمام ، أو بالتقويم عند الانحراف ، الى جانب الاهداف الاخرى التى شرحناها ٠

كيف تفاعلت النفوس اذن بهذا الاعلان القرآنى الجديد الذى تلقـاه الرسول الأعظم ؟

همس هنا وهناك بين أرجاء مكة ، تعليقا على ما حدث بالأمس القريب لمحمد بن عبد الله فى غار حراء ، حيرة فى تفسير هذه الظاهرة فى داخـل الرسول العظيم ٠ وفيما يجب أن يعمل بعدها ، والزوجة الوفية الرحيمة الزكية خديجة بجواره تبعث فى قلبه الطمأنينة والأمل الكبير ٠ وكان لابد لهذه الحيرة من نهاية ، ولهمس الناس من قول فصل ، ولهذا نزلت سورة المدثر تضع الرسول أمام رسالته ، وتعلن حكما فاصلا أمام زعماء قريش الذين بدأوا يهمسون بمس من الجن أصاب الرجل الأمين محمد بن عبد الله ، وتحدد الخطوط العريضة للرســالة فى : الانذار ، وتكبير الله ، وهجران الأصنام ، وطهارة الظاهر والباطن ، والصبر على الأذى ٠

وكان انذار الرسول لقومه ، وبدأت قريش تنقسم على نفسها ، بين قلة مستعدة لتقبل الايمان الغيبى ، وكثرة لا صقة بالمادة وحدها ، بدأت تعلن جنون الرسول العظيم ، وتأخذ من جنونه منطلقا لصد الناس عن دعوته، واعداد العدة لاضطهاده واضطهاد القابلين لها ٠

ولم تكن تعليقات القرشيين على الدعوة الجديدة بجنون الرسول بدعا بين مناهج الفكر والفهم للرسالات السماوية ، فتلك سمة لازمة لأولئك الذين غلفت قلوبهم بأهوائهم ، رددها القرآن فى قصصه عن الأمم الغابرة مع رسلها ٠

وكان الرد الطبيعى أن يسجل القرآن حقيقة أمر الرسول ، وحقائق هؤلاء القرشيين المارقين ، التى تعتبر امتدادا لمنطق الكفر والالحاد فى كل زمان ٠ فنزلت سورة القلم ، تحقق كمال عقل الرسول ، وتشيد بخلقه العظيم ، وتعده بظهور الحق على الباطل ، وترده الى علم الله بالمهتدين والضالين دون الرجوع الى علم البشر ومقاييسهم ، وتحذره من طاعة هؤلاء الأدعياء الذين غلف قلوبهم حب المال والبنين ٠

ثم ماذا ؟

آمن بالرسول جمع قليل ، وثارت فى وجهه عاصفة هائجة من العداء والمقاومة العنيفة من شأنها أن تفت فى عزيمة أقوى الرجال ما لم يكن مؤمنا بقوة قاهرة عليا ، هى أقوى من كل القوى البشرية مجتمعة ٠

ومع العناية الرحيمة الفائضة من الله تعالى على الرسول فقد وجهه سبحانه الى منهج تربوى جديد ، من شأنه أن يجعل الانسان على صلة دائمة بمصدر القوة القاهرة العليا ، مستعدا للوفاء بأعظم الأعمال ، والثبات أمام أشد التبعات والأهوال ٠ فنزلت سورة المزمل ، وفى صدرها هذا المنهج الجديد للرسول وأتباعه الذين ألقيت على كواهلهم التبعات الأولى للدعوة ، ولكل من يريد الخطوة بعون الله ونصره مدى الزمان ٠

وهذا المنهج ينحصر فى قيام الليل ،وترتيل القرآن فى صلاة الليل ، استعدادا للقول الثقيل الذى يوشك أن يتوالى القاؤه على الرسول ، والهجر الجميل لأهل الأوثان ، والصبر على ما يقولون ، الى آخر ما فى هذه السورة من أوامر تتسق تمام الاتساق مع سير الدعوة ٠

وفى كل تلك السور الأولى زاده الله معرفة بأصول التوحيد وتاريخه ، وطبائع الكفر ومنطقه ، وذلك تلاحم وحكمة فى الترتيب لا يردها عقل

مستقيم ، ودليل على ثراء هذا الترتيب النزولى بالعلوم والمعارف الاسلامية المتلائمة مع شمول الدعوة وصلاحيتها لكافة العصور والأجيال ٠

بين ترتيب القرآن فى المصحف وترتيب النزول :

ما رأينا ولا سمعنا بكتاب ألفه عبقرى فى زمانه يعطيك من مراحل تأليفه وتسويده منهجا عالميا ومنه فى نهاية تبييضه واخراجه منهجا عالميا آخر ، اللهم الا أن يكون مؤرخا ، أو عالما أو تجريبيا من علماء الاجتماع أو الفيزياء ، يثبت تجاربه ومشاهداته أو الأحداث التى يقع عليها على مدى طويل من الزمان ، ثم يضع على أساس تلك المشاهدات نظريه أو قانونا علميا ، أو قاعدة من تلك القواعد التى تسمى فلسفة التاريخ ٠ ولكن هذا المؤلف أو ذاك يستبعد الكثير جدا من مراحل اعداد كتابه لما شابها من خطأ أو ارتجال ، أو انعدام للجدوى والفائدة ٠

ومع ذلك فان هذا الكتاب أو ذاك رغم الجهود المضنية التى عاناها المؤلف ، لا يمكن بأى حال أن يكون وافيا بحاجات العصور والأجيال ، كما أنه لا يمكن أن يكون حقا غير قابل للنقض والتغيير ، فما أسرع ما تختلف المشاهدات فى المعامل وتتغير القوانين العلمية ، وما أسرع ما يثبت قصور النظرية الاجتماعية ، أو تصادمها مع غيرها فلا يستقر الناس على رأى ، ولم يستقروا منذ مطلع التاريخ حتى الآن ٠

وذلك لأن الانسان مفردا أو مجتمعا مهما أوتى من قوة الفكر لا يمكن أن يحيط بالفطرة وقوانينها حتى يصلح أن يكون مرشدا لها ، وهاديا من الضلالة ٠ اذ أنه لا يحيط بالفطرة علما الا خالقها سبحانه ، ومن الفطرة ألا يحيط مقيد هو الانسان بمطلق هو سر الله فى خلقه ، وكل ما يعلمه الانسان من تلك الفطرة أجزاء تقل أو تكثر ، ولكنها لا تصلح منهجا عالميا للسلوك ، ولا حتى منهجا محليا غير قابل للنظر ، اللهم اذا كان ترجمة أمينة لمقاصد فطرة الله فى خلقه ، وهو عمل لا يتهيأ الا لمن يفقهون عن الله ، **(واتقوا الله ويعلمكم الله)** ٠

والقرآن وحده هو الكتاب الذى يعطيك من كل وجهة من وجهتى ترتيبه منهجا عالميا جامعا مانعا محكما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ٠ فهو فى ترتيبه النزولى كما قلنا ٠ منهج لتأسيس دعوة ، وأسلوب اقناع بعقيدة ، وطريقة تبشير وانذار ، ودحض كامل لمنطق الالحاد المريض وهو فى ترتيبه المصحفى أسلوب حياة ، وبناء حضارة ، ودستور للعالم كله محيط بكل صغيرة وكبيرة من حاجاته ومطالبه ، أحكم ترتيبه من هذه الوجهة ليكون

هداية للمؤمنين ، من حيث كان الترتيب النزولى هداية للمؤمنين ، وتدرجا بالكافرين أو اللادينيين الى مرتبة الايمان ، وهو فى كلا الحالين نبع لا يغيض للأسرار والعلوم ٠

فاذا ارتاد الدعاة مجاهل الالحاد عاملوا أهلها على مقتضى ترتيب النزول فاذا ثاب الناس الى الايمان وضعوا بينهم وجهه الآخر وهو ترتيب المصحف ليكون أسلوب حياة ، ووسيلة بناء لجحفل جديد من جحافل الدعوة والانطلاق على وجه الأرض تحت راية الايمان ٠

ومما يلقى الضوء على كلا الترتيبين : أن نحاول تفهم حديث الله عن كتابه فى أول كل منهما ٠ ففى مفتتح الترتيب النزولى نجد الحديث عن القرآن فى سورة المدثر دفاعا عنه ضد المعرضين عنه ، والذين نسبوه الى السحر أو قول البشر ، ثم تقرير يؤكد أنه تذكرة ٠ وذلك فى قوله تعالى :

ثم أدبر واستكبر ٠ فقال ان هذا الا سحر يؤثر ٠ ان هذا الا قــول البشر ــ ٢٣ ــ ٢٥) ٠ وقوله : **(كلا انه تذكرة ٠ فمن شاء ذكره ٠ وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ــ ٥٤ ــ ٥٦)** ٠

ويصور القرآن نفور الكافرين من القرآن والرسول بقوله تعــالى : **(فما لهم عن التذكرة معرضين ٠ كأنهم حمر مستنفرة ٠ فرت من قسورة ــ ٤٩ ــ ٥١)** ٠

وفى سورة القلم ، ثانية سور القرآن تنــاولا للقرآن حسب ترتيب النزول يمضى الحديث مع الوليد بن المغيرة أيضا فى قوله تعالى : **(عتل بعد ذلك زنيم ٠ أن كان ذامال وبنين ٠ اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ٠ سنسمه على الخرطوم ــ ١٣ ــ ١٦)** ٠ وفى نهاية السورة يقول تعــالى : **وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لمــا سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ٠ وما هو الا ذكر للعالمين ــ ٥١ ، ٥٢)** ٠

وفى مفتتح الترتيب فى المصحف نجد الحديث عن القرآن مختلفا تماما ٠ ففى أول سورة البقرة يقول الله تعالى : **(ذلك الكتــاب لا ريب فيه هدى للمتقين ٠ الذين يؤمنون بالغيب ــ ٢ ، ٣)** ٠ وبعد قليل يقول الله تعــالى : **(وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ٠ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ــ ٢٣ ، ٢٤)** ٠

فالحديث عن القرآن فى أول الترتيب النزولى يتجه فى سورة المدثر

الى تسفيه قول الوليد بن المغيرة فى القرآن : (**ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر**) . ثم ينعى على مثل الوليد الأعراض عما فى القرآن من تذكرة ، ويصور هذا الاعراض بنفور الحمير النافرة من الأسود . فكأن الاعراض قد جاء بعد نظر وكشف لحقيقة القرآن ، وهو الأمر الذى حدث من الوليد حين سمع القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتأمله تأملا واعيا ، فمس من قلبه منطقة الاعجاب والقرب من الايمان ، وقرر أنه ليس قولا من أقوال البشر ، فلما زجره أبو جهل ، وذكره الاستقراطية القرشية عاد وفكر وقدر ثم قال ما قال معرضا عما مس قلبه من حنين الى القرآن .

فكأن القضية ليست قضية الوليد ، وانما هى قضية أمثال الوليد ، وهم كثيرون فى كل عصر . قضية الالحاد والاعراض عن الذكر ، وأسبابه ودوافعه ، فالوليد هو التجسيد الواقعى لعناصر الالحاد ، والذى اجتمع فيه منطق الكفر والعناد ودوافعه جميعا ، ولابد أن يوضع هذا التجسيد الواقعى أمام المؤمنين فى مطلع الدعوة حتى يكون نموذجا يقاس عليه مثله على مدى الزمان الطويل .. والا فما قيمة فرد من خلق الله كالوليد حتى يحظى بهذا القدر من الآيات فى سورتى المدثر والقلم ؟!

ففى سورة المدثر يقول الله تعالى عن منطق الكفر والعناد والاعراض فى صورة الوليد بن المغيرة : (**ذرنى ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا انه كان لآياتنا عنيد سأرهقه صعودا . انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم ادبر واستكبر . فقال ان هذا الا سحر يؤثر . ان هذا الا قول البشر . سأصليه سقر ـ ١١ ـ ٢٦**) .

وفى سورة القلم يمضى القرآن مع الوليد فيقول تعالى : (**ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم . مناع للخير معتد أثيم . عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين . اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ـ ٨ ـ ١٥**) .

وهنا تتضح الصورة ، وتتألق الحكمة ، فالتعزز بالمال والبنين والعشيرة والجاه ، والاستعباد لتلك المظاهر ، وحرص القلوب عليها ، والطمع فى المزيد منها ، يجعل الانسان نافرا عن كل ما يهدد هذا المتاع وذلك الجاه ، متجنيا على القيم العليا ، واصفا اياها بغير ما هى عليه من السمو والعظمة ، يقسم أغلظ الايمان ليدحض الحق ويعلى كلمة الباطل ، ويفرق بين الناس حتى

لا يجتمعوا على الحق ، ويسلك لذلك طريق النميمة والهمز ، كل ذلك بسبب حب المال والفناء فى متاعه الزائل • ولكن هؤلاء المعاندين لا يصدرون عن حق آمنوا به ، وانما هو العناد والمكابرة ، والفزع من زوال الجاه والمال والرئاسة، ولهذا نسبوا القرآن الى نوع من التفوق البشرى هو السحر ، أو العلم بالتاريخ ، ولم ينسبوه الى الغيب الذى هو فوق البشر والأكوان جميعا •

هكذا كان كفار العرب الجبابرة وغيرهم من أساطين الكفر فى الرسالات الأخرى •

قال قوم شعيب لشعيب : (**أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء** ـ ٨٧) هود •

وقال قوم لوط عن لوط : (**اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون** ـ ٥٦) النمل •

وقال فرعون عن موسى : (**أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى • فلنأتيك بسحر مثله** ـ ٥٧ ، ٥٨) طه •

وقال قوم هود لهود : (**ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء** ـ ٥٤) • هود •

وقال القرشيون عن نبى الاسلام : (**لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ـ ٣١) الزخرف •

وكان اليهود يخافون على مناصبهم ، فكتم علماؤهم البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم •

وفزع اليهود حديثا على ما كفروا من أجله وهو المال وتجارة الشهوات فابتكروا الشيوعية دينا ، وانفقوا الملايين لاقناع الناس بأن الايمان بالله أفيون الشعوب • ولم يكن ذلك جديدا فى الفكر اليهودى الملحد ، فقد اتهموا الله سبحانه وتعالى بأنه اقطاعي يحجز المال عن الناس فقالوا : (**يد الله مغلولة**) • وبأنه مراب فاحش الربا ، فقال حبرهم فنحاص معلقا على آية الصدقة لابى بكر : (ان ربك قد افتقر ، وانه يأكل الربا عشرة أضعاف ، ونحن نأكله ضعفا واحدا) • وقاموا بما يشبه الثورات الشيوعية الحديثة حين ثاروا على المن والسلوى ، وطلبوا القثاء والبصل ، وحينما طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة ، بل وحينما طلبوا منه أن يجعل لهم أصناما كأصنام الكافرين •

هذا هو منطق الالحاد وطاغوته الذى افتتح الله كتابه به على ترتيب النزول ، وتلك هى أهميته العظمى التى كان من الواجب على المسلمين دراستها من خلال ترتيب نزول القرآن ، ولكنهم بكل أسف أغفلوا هذا الجانب فأغفلوا بهذا الاغفال بابا هو من صميم دعوتهم ، ومن أصول ثقافتهم ونجاحهم ، ومن مبادىء علمهم بعدوهم ، وأصبح دفاعهم عن دينهم فى مواجهة مذاهب اليهودية العالمية سطحيا لا يمت الى جذور الصراع بأية صلة ، وأمعنوا فى السطحية حتى نسبوا الى القرآن أنه أول دستور سماوى نادى باشتراكية ماركس ، وهذا هو قصارى ما تريده اليهودية العالمية من المسلمين لتمضى على الطريق فى غزو القرآن بهذه العقول النخرة المتهالكة ·

وتسمية القرآن فى مطلع النزول بالذكر ذات دلالة عظمى على منهج التربية والدعوة فى الاسلام ، فهى تسمية تساير مضمون أول سورة العلق تماما · فالذكر مقصود بمعانيه ، وهى : ملكة حفظ المعلومات وجمعها ، أو توارد المعانى على القلب عند الحاجة اليها ، أو ذكر الله بالقلب واللسان حتى يكون الذاكر مراقبا لله فى كل حركاته وسكناته ، أو الانتفاع بما فى القرآن من مواعظ وحكم وعبرة · فتلك المعانى كلها مرادة من الذكر ، وهى مع أول سورة العلق تمثلان نفس المنهج التربوى متكاملا ، وهذا المنهج المتكامل هو خير ما يقاوم تيار الكفر ومنطق الالحاد ، بتكوين قاعدة عريضة وصلبة من الايمان الحق بالقوة القاهرة العليا ·

ثم نأتى الى حديث الله تعالى عن القرآن فى مطلع ترتيب المصحف فنرى العجب العجاب من حكمة الله فى ترتيب كتابه الحكيم ، فالسورة الحادية والخمسون فى ترتيب النزول تتصدر القرآن فى ترتيب المصحف ·· فما حكمة هذا التصدر ، وما سره ؟

نزلت سورة البقرة بالمدينة ، والمدينة بوضعها الرمزى بل والأصيل هى حاضرة دار الاسلام ، وعاصمة الحكم لأمة الاسلام ، ومنطلق الفاتحين المبشرين بالدين الجديد ، ومركز الدعوة ضد دار الكفر فى مكة ، وفيما والى مكة والمدينة من أقاصى الجزيرة ، وفيما تاخم المدينة من أرض اليهود · أى أن المدينة قد أصبحت قاعدة الصراع والدعوة ، ومجتمع المؤمنين القادة الأوائل ، وكان القرآن قد استقر بمنطقه وقوته بين المؤمنين ، وخلف بين كفار مكة بعد الهجرة فزعا أطاش منهم الصواب ·

لقد مضت مرحلة الذكر بمعانيها التربوية الأولى ، وأصبح الذكر مقرونا بالهدى للمؤمنين فى الحاضرة الجديدة للاسلام ، وفى كل دولة ينتشر

فيها الاسلام فيما بعد عصر الرسول الى آخر الزمان ، وتستقر فيها دعائمه ، وتتجاوز مرحلة الصراع بين العناد والاستسلام ·

وحاجة البناء الجديدة فى المدينة وما شابهها من حواضر الاسلام المكلفة بالجهاد لنشر الاسلام الى الهداية ، وحاجتها الى تحديد صفات المؤمنين وخصائصهم لا تدانيها حاجة من حاجات الأمم الناشئة ذات الرسالات والدعوات الكبرى · وذلك ليستوثق كل مؤمن من نفسه ، ويكتشف بنور الهدى وظاهر العلامات ذلك النوع من الناس الذين تصاب بهم المثل العلية فى كل زمان وهم المنافقون ·

والهدى يبدأ من فطرة الانسان ، وما أودعه الله فيه من ملكة الفرق بين الحق والباطل اذا لم يعمل على افساد فطرته بالتمرغ فى وحل الهوى وتلك هى التقوى ، ثم يتدرج بعد أن يزول الهوى عن النفس وتتجرد الفطرة الى فقه ما نزل من القرآن ، وتعرف وجوه حكمته ، ثم يتدرج بعد احكام هذين الوجهين الى الظفر بعون الله على الهداية والتقوى (**والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم**) · وهنا يستقيم وجه المؤمنين على طريق الرضوان الالهى ·· الى جنة الخلد ونعيم لا يبلى بحول الله ·

أما سمات المؤمنين المتقين الظافرين بعون الله على الهدى والتقوى فقد أعقبت وصف القرآن بأنه هدى فى مطلع سورة البقرة · فالمؤمن كما قلنا يجرد نفسه عن الهوى ، ويفقه بفطرته ما دعى الى فهمه من كتاب الله ، ودعوة الرسول ، فيمنحه الله مزيدا من الهدى ، ويؤتيه على الفور درجة التقوى ، وفى التقوى يندرج : الايمان بالغيب ، واقامة الصلاة ، وانحلال قبضة القلب واليد عن المال وانفاقه فى سبيل الله ، والايمان بالرسل والكتب ، واليقين بالبعث والحساب فى الآخرة · أى هى : وصل الحياة الاخرى بالحياة الدنيا ، على الوجه الذى شرحناه فى صدر هذه الدراسة ·

وهنا يتميز المؤمنون المتقون بعلامات ظاهرة ، وعلامات أخرى باطنة كاليقين بالآخرة لها دلائل من السلوك الظاهرى ، وهذا التمييز للمتقين يعزله تلقائيا المنافقين فلا يخفون على مؤمن تقى أورثه اليقين بالغيب بصيرة نافذة ، وفراسة لا تخطئ · ومع ذلك فلم يكل الله المؤمنين الى جهودهم فى كشف المنافقين دون أن يمنحهم مزيدا من الهداية الى معرفتهم بسماتهم الظاهرة لكل ذى عينين ، وذلك لخطورة هذا النوع من الناس على بناء الحضارات فى كل زمان ، ولرواج خداعهم لدى ضعاف الايمان · ولهذا مضت السورة فى تحديد معالم النفاق من قوله تعالى : (**ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين** ـ ٨) الى (**ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله**

على كل شيء قدير - ٢٠) • أما تفصيل المراتب النفسية للنفاق ودوافعه فموضوع طويل يخرج بنا عن مقصود الدراسة •

ولقد فطن الامام السيوطي الى سر ترتيب المصحف من هذه الوجهة التي شرحنا طرفا منها غير الذى تحـدث عنه فقـال في كلامه عن سورة البقرة ما تسوقه بتصرف :

كان خطاب النصارى في آل عمران أكثر ، وخطاب اليهود في البقرة أكثر ، لأن التوراة أصـل ، والانجيل فرع لها ، والرسول دعا اليهـود في المدينة ، ولم يجاهد النصارى الا آخر الامر ••• وسورة النساء تضمنت أحكام الاسباب التي بين الناس مما هو مخلوق لله ، ومقدور لهم ، كالنسب والصهر ، وهو أساس بناء المجتمع • ولهذا تضمنت أحكام النكاح ومحرماته، والمواريث المتعلقة بالارحام ، وأما المائدة فسورة العقود التي تنشأ عن الجهاد والصراع بين أمة الاسلام والأمم الأخرى ، وتضمنت تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، وصيانته من عوامل الهـدم ، كتحريم الخمر ، وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين ••• الى آخر ما قاله فأبدع في القول •

وحيثما دققت النظر استبان لك معنى جديد من معاني الترتيب ، فما يصح في منطق القول أن نحدد مرادات الله ، وهو المطلق عن الاطلاق ، والمحيط بالعقول والمواهب •

ولو ذهبنا مع القرآن مرتبـا في المصحف من أوله الى آخره لوجـدناه على هذه الوتيرة : شعار أمة مجاهدة مؤمنة كلها هدى ونور قد انعزل بنور هدايتهم المنافقون ، ووضعوا في صف واحد مع المشركين في وجوب جهادهم، بعد أن كان على ترتيب النزول وسيلة اقناع ، وأداة صراع مع منطق الكفر ، وجبروت النفاق ، ودفاعا عن مقدسات الهدى والايمان • وما كان على ترتيب النزول مقدما عاد فوضع في أماكنه بحيث لا تخطئه الحكمة ولا يعدوه الاحكام والتفصيل ، وتلك دلالة كبرى على اعجاز القرآن ما بعدها دلالة لطالب عظمة القرآن • وفي كتاب الامام السيوطي الذى الحقناه بهذه الدراسة خير دليل نقدمه على صحة ما نقول •

ولقد عرف سر ترتيب القرآن قديما بعلم المناسبات ، وما عرف منه فانما هو ما في ترتيب المصحف ، أما أسرار ترتيب النزول فلا نعلم أحدا تعرض له في كتاب ، لا في القديم ولا في الحديث ، الا قليـلا في كتب الأصول •

ورغم كثرة كتب التفسير التقليدى فان المؤلفات في سر ترتيب القرآن

أو علم المناسبة قليلة جدا ، فالذى نعلمه من هذه الكتب كتاب البقاعى « نظم الدرر » ومنه نسخة كاملة بالمكتبة الأزهرية بمصر فى ستة مجلدات كبار • وكتاب « البرهان فى مناسبة ترتيب سور القرآن » لأبى جعفر بن الزبير ، شيخ أبى حيان صاحب البحر المحيط • وكتاب السيوطى هذا الذى نقدمه للقراء ، وكتاب آخر للسيوطى سماه « مراصد المطالع فى المقاطع والمطالع » • وكتاب قال السيوطى أنه كتبه وجعل من أبوابه الموسوعية ترتيب القرآن سماه « اسرار التنزيل » •

وقد نبه العلماء قديما على اهمال علم المناسبة ، ولفتوا الأنظار الى أنه يحتوى على لطائف القرآن ، بل ان الفخر الرازى قال : « من تأمل فى لطائف نظم السور وبديع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة الفاظه ، وشرف معانيه ، فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته • ولعل الذين قالوا : انه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك ، الا أنى رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف ، غير منتبهين لهذه الأسرار » •

وكان ابن العربى قد يئس من طلاب العلم والعلماء الذين أعرضوا جملة وتفصيلا عن هذا العلم الجليل ، وأعرب عن يأسه فى قوله : « ارتباط آى القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة ، متسقة المعانى ، منتظمة المبانى ، علم عظيم لم يتعرض له الا عالم واحد ، عمل سورة البقرة ، ثم فتح الله لنا فيه ، فلما لم نجد له حملة ، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ، ختمنا عليه ، وجعلناه بيننا وبين الله ، ورددناه اليه » •

وقد جاهد الشيخ أبو بكر النيسابورى فى نشر هذا العلم ، فجعل دروسه فى التفسير قائمة على بيان المناسبات ، ومع ذلك فقد أعلن سخطه على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبات •

ومن العجيب أن اهمال هذا الجانب من الدراسات القرآنية المهمة لا زال قائما لم يتقدم خطوة واحدة الى الأمام • فعلى الرغم من أن مؤسسات النشر الحكومية والخاصة دائبة على نشر الكتب التقليدية فى التفسير ، والتى يغنى بعضها عن مجموعها فقد أغلقت أبوابها فى وجه أول تفسير موسوعى من نوعه تخصص فى هذا النوع ، وهو « نظم الدرر » للبقاعى • ولا حجة لهذه الدور فى انها تنشد الرواج التجارى للكتب ، فهذا الكتاب فى الدرجة الاولى من الرواج لعدم وجود نظير له بين الدارسين ، ولجودته الفائقة من جهة أخرى • ولا حجة لكبار العلماء فى جهلهم بهذا الكتاب ، فالذى نعلمه أنه كان بصفة دائمة على مكتب الشيخ المراغى ، واقتبس منه كبير من العلماء جملا صنع منها تفسيرا نسبه لنفسه • فان كان حبس الكتاب عن الطبع ليكون

مصدرا للسطو فبئس الصنيع ، وان كان حبسه مع غيره تنفيذا لمخطط قصد به أن يظل المسلمون بين لغط التكرار المَمل لعلوم التفسير فيا خيبة المسعى .

ولقد نفذ غلاة الشيعة وكثير من الملاحدة من خلال موضـــوع ترتيب القرآن فى المصحف ، وأطالوا القول طعنا فى القرآن الكريم متذرعين باختلاف مصاحف بعض الصحابة فى ترتيبها ، وغير ذلك من الذرائع الواهية التى تكفل الامام السيوطى بالرد عليها فى مقدمة كتابه هـذا . ثم ساق كتابه دليلا على أن ترتيب القرآن فى المصحف توقيفى الى جانب الأدلة الأخرى التى فصلها فى المقدمة .

وهناك دلائل من سياق ترتيب القرآن فى المصحف تؤكد أن ترتيبه فيه ما كان الا بالوحى ، ولم يكن من صنع بشر ، لأن تلك الاعتبارات المرعية فى هذا الترتيب لم تكن من منهج الصحابة فى التفـــكير ، ولا سمعنا أن اجتماعا حدث بينهم لهذا الترتيب ، اللهم الا ما روى عن زيد بن ثابت قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ... » . وما دام هذا التأليف كان عند الرسول ، فما كان الرسول ناطقا عن الهوى ، لا سيما وقد صح انه كان يرشد كتاب الوحى والحفـــاظ الى مكان الآية من سورتها عقب نزولها . ومن تلك الدلائل ما يلى :

١ ـ قوله تعالى فى سورة البقرة : (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم ـ ٢١**) فالعبادة فى الآية معناها : التوحيد . وهو أول ما يلزم العبـــد معرفته ، والايمان به ، ولهذا كان أول خطاب خاطب الله به النـــاس جميعا فى أول سورة فى القرآن ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى فى نفس السورة : (**ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم**) قال الكرمانى : وهو علم الكمال ، أى العلم بالله وأسمائه وصفاته ، ولذلك عبر عنه بقوله : (الذى) .

وورود هذه الآية بهذا المعنى فى أول سورة فى المصحف مع أنها مدنية وليست مكية ، دليل على أن هذا الترتيب توقيفى من الوحى ، ويدل عليه قوله تعالى فى سورة هود : (**فأتوا بعشر سور مثله ـ ٣**) وسورة هود مكية ، والمعنى : فأتوا بعشر سور مثله ، أى : من البقرة الى هود ، وهى العاشرة ، مع أن البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة مدنيـــات نزلن بعدها .

فآية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول ، باعتبار أن التحدى واقع على عشر سور من القرآن عامة غير محددة ، ولكن ترتيب المصحف حدد العشر ، وحدد أول ما يجب على العبد معرفته واعتقاده مثبتا فى أول سورة من القرآن .

٢ – ومن دلائل الترتيب واحكامه قوله تعـالى فى سورة البقرة : **« الا ابليس أبى واستكبر – ٣٤ »** • ولقد جرت عادة القرآن فى شأن العقيدة أن يجملها ، ثم يفصلها فيما بعدها من الآيات • وهذا هو الثابت فى ترتيب المصحف • واباء السجود من ابليس يعتبر بيانا للعقيدة عن طريق بيان موانع الايمان بها ، وقد جاءت تلك الموانع مجملة فى قوله : (أبى) • ثم فصلت فيما بعدها من السور على ترتيب لا يخلو من الأسرار واحكام الترتيب •

ففى سورة الحجر قال تعالى : **(الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين – ٣١)** • وفيه بيان لموضع الاباء • وفى سورة الاسراء : **(قال أأسجد لمن خلقت طينا – ٦١)** • وهو بيان لعلة الاباء • وفى سورة الكهف : **« الا ابليس استكبر وكان من الكافرين – ٧٤ »** • وفيه علة من علل الاباء وهى الكبر • مع تفصيل نتائجها ، وانها تصل بصاحبها الى الكفر • فانتهى بما بدأ به من تقرير هذه القضية التى يقوم عليها الكفر فى كل زمان •

٣ – قوله تعالى فى سورة البقرة عن بنى اسرائيل : **(ويقتلون النبيين بغير الحق – ٦١)** • وفى آل عمران : **(ويقتلون النبيين بغير حق – ٢١)** • وفى سورة النساء : **(وقتلهم الأنبياء بغير حق – ١٥٥)** • فقد وردت كلمة (الحق) معرفة بالألف واللام فى البقرة ، ونكرة فى آل عمران والنساء • وقال المفسرون : ان المعرفة يراد بها الحق الذى أمر الله أن تقتل النفس بسببه وهو قوله تعالى : **(ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق – ٦ : ١٥١)** • فكان أولى أن يذكر مقدما ومعرفا ، لأنه من الله تعالى ، ولأنه عام فى الشرائع كلها • والنكرة فى آل عمران والنساء معناها : بغير حق فى معتقدهم ودينهم ، فكان أولى بالتأخير ، لأنه خاص بفريق من الناس ، وليس عاما فى الشرائع والديانات •

٤ – قوله تعالى فى دعاء ابراهيم الخليل عند بيت الله المحرم فى سورة البقرة : **(رب اجعل هذا بلدا آمنا – ١٢٦)** • وفى سورة ابراهيم : **(رب اجعل هذا البلد آمنـا – ٣٥)** • فكلمة (بلدا) جاءت منكرة فى البقرة ، ومعرفة فى ابراهيم ، لأن الدعاء الوارد فى البقرة كان قبل بناء الكعبة ، كما أشير اليه بقوله تعالى : **(بواد غير ذى زرع – ٣٧)** • فلما بنيت الكعبة ، واستقر حولها الناس ، جاء الدعاء للبلد المعروف المحدد المعالم ، ولذلك جاء معرفا ، وجاء عقبـه فى ابراهيم : **(واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام)** وجاء فى البقرة عقبة : **(وارزق اهله من الثمرات)** •

٥ – قال تعالى فى سورة البقرة : **(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله – ١٩٣)** وقال فى سورة الأنفال : **(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة**

ويكون الدين كله لله ـ ٣٩) • وقد جاء هذا النسق على ترتيب القتال داخل الجزيرة العربية وخارجها • فالذى فى سورة البقرة يراد به كفار الجزيرة العربية ، لتكوين القاعدة العربية الأولى التى يناط بها نشر الدعوة خارج الجزيرة • ولذلك جاء فى الأنفال كلمة (كله) اشارة الى قتال جميع الكفار ، وقد تطابق الترتيب مع الواقع ، ورتبت الأوامر حسب تدرجها •

٦ ـ فى معرض التحدى بالقرآن جاء فى سورة البقرة خطابا لمنكرى أن القرآن من عند الله : (**وادعوا شهداءكم ـ ٢٣**) • ثم جاء فى سورة يونس: **وادعوا من استطعتم ـ ٣٨**) • وكذلك جاء فى سورة هود ، وذلك لأنه لما زاد فى السور المتحدى بها الى عشر سور ، زاد فى المدعوين فقال : (**من استطعتم**) • ولما كان التحدى فى سورة البقرة بسورة واحدة قل عدد المدعوين ، وانحصر فى الشهداء وحدهم •

وقد مضى الترتيب مسايرا للملابسات حتى سورة الاسراء ، اذ وقع التحدى صراحة على جميع القرآن ، فوجه الكلام الى الجن والأنس جميعا فقال تعالى : (**قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ـ ٨٨**) •

وبهذا ندرك تدرج التحدى من سورة ، الى عشر سور ، الى القرآن كله ، وملاءمة القرآن بين القدر المتحدى به، ومقدار المدعوين الى معارضته ، فى ترتيب دقيق محكم •

٧ ـ وترتيب مجموعة من الآيات فى موضوع واحد تتجلى فيه الدقة الخارقة فى مراعاة التسلسل المنطقى للفكرة التى تدور حولها تلك المجموعة ، مما يقطع بأنه من عمل غير الصحابة ، أى أنه توقيف من الوحى ، لأن تلك الملاحظات لم تكن قط من الأمور التى جرى بحثها والكلام عنها فى عهد الصحابة كما تشهد بذلك آثارهم •

فقد جاء فى سورة النحل جملة (**أ اله مع الله**) خمس مرات متوالية • وختمت الأولى بقوله : (**بل هم قوم يعدلون ـ ٦٠**) • والثانية بقوله : (**بل أكثرهم لا يعلمون ـ ٦١**) • والثالثة بقوله : (**قليلا ما تذكرون ـ ٦٢**) والرابعة بقوله : (**تعالى الله عما يشركون ـ ٦٣**) • والخامسة بقوله : (**قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ـ ٦٤**) •

قال الكرمانى : عدلوا الى الذنوب ، وأول الذنوب : العدل عن الحق ، ثم لم يعلموا ، ولو علموا ما عدلوا ، ثم لم يذكروا فيعلموا بالنظر والاستدلال،

فأشركوا من غير حجة ولا برهان ، قل لهم يا محمد : هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين ·

٨ ـ وفى ترتيب المسبحات قد استوعب القرآن هذه الكلمة ، كلمة التسبيح من جميع جهاتها ، على ترتيب بديع يتفق مع المعانى اللغوية تمام الاتفاق ، فلم يتقدم معنى يستحق التأخير ، ولم يتأخر معنى يستحق التقديم ·

فقد استعملت الكلمة أولا فى سورة الاسراء على هيئة المصدر (سبحان) ، لأن المصدر هو الأصل اللغوى لجميع المشتقات ، ثم استعملت بعد المصدر بالفعل الماضى فى سورة الحديد والحشر والصف ، لأن الماضى أسبق الزمانين ، ثم استعملت بالفعل المضارع فى سورتى الجمعة والتغابن ، ثم جاءت أخيرا بفعل الأمر فى سورة الأعلى ·

فاستوعبت الكلمة من جميع جهاتها على ترتيب بين أصلها وأزمنتها قبل أن يفطن اليه البشر الذين يخلطون بين الأزمنة والأصول والفروع ·

ومما يؤكد أن ترتيب القرآن فى المصحف آياته وسوره بتوقيف كثرة هذه الشواهد حتى تبلغ الآلاف المؤلفة ، منثورة فى مؤلفات العلماء ، ومن البعيد جدا أن يكون الرهط الذين كلفهم عثمان رضى الله عنه بجمع سور القرآن فى المصحف قد بحثوا عن هذه المناسبات ، ثم رتبوا القرآن على أساسها ، فكما قلنا هناك من المناسبات ما يشتمل على تقسيمات وتفريعات لم تكن من ثقافة العصر ، ولم يؤثر مثلها عن الصحابة ، ولم تظهر الا بعد عصرهم · كما أن المأثور من جمع القرآن أنه حدث ثلاث مرات : مرة فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وبأمره ، كما قال زيد بن ثابت : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع ··· والاجماع قد انعقد على أنه صلى الله عليه وسلم كان يرشد الصحابة الى مواضع الآيات من السور تلقيا من الوحى ، وعلى هذا فترتيب الآيات فى سورها توقيفى من الوحى ، وكانت المرة الثانية فى عهد أبى بكر ، فقد كلف زيد ابن ثابت بتأليف لجنة قامت بعملية تحقيق ومقارنة لنصوص القرآن المكتوبة بالمحفوظ فى الصدور ، وكان عمل اللجنة كما يقول الحارث المحاسبى : عبارة عن نسخ القرآن من العسب والأكتاف والرقاع فى مكان واحد مجتمعا · والمرة الثالثة فى عهد عثمان ، وكانت لاعادة كتابة القرآن بلهجة قريش خوفا من فتنة قد تنشأ من اختلاف اللهجات والقراءات ، حتى اقتتل المعلمون والصبيان على ذلك ، ورتبت السور فى هذه المرة ، وليس فى الآثار أن مراعاة المناسبات المعنوية واللفظية كانت من عناصر الترتيب مطلقا ·

واذا كان هناك زعم بأن هذا الترتيب كان من فعل الصحابة ، فانه من غير المعقول أن يفطن أحـــد الى تِسلسل الاشتقاق المحكم للمسبحات على الوجه الذى بيناه ، والى أمثال ذلك مما يحتاج الى درس لقواعد اللغة التى لم تكن قد عرفت بعد • والقول بالصدفة هنا تبطله الشواهد الأخرى المماثلة والتى لا تحصى ، والتى لا يمكن أن تكون الا عن وحى وتوقيف •

ولا ندرى كيف يؤكد بعض علماء السلف أن ترتيب السور كان من عمل الصحابة استنادا الى الاختلاف فى مصاحف بعض الصحابة مع هذه الشواهد التى تؤكد تسلسل المعـــانى والاشتقاقات اللغوية ، والوقائـــع التاريخية داخل السور وفى تسلسلها كما هو فى المصحف • وغاب عنهم : أن الترتيب التوقيفى لا يمنع مطلقا التقديم والتأخير فى القراءة ما لم تقرأ السورة منكوسة من آخرها الى أولها ، وترتيب السور على النزول توقيف هو الآخر ، أما مصحفا أبى وابن مسعود فقد رد السيوطى عن خلافهمـــا فى الترتيب للمصحف العثمانى • على أن قتادة كان قد عرض على عكرمة أن يؤلف القرآن على ترتيب النزول آية آية ، الأول فالأول ، ولكن المشروع كان مستحيلا ، اذ قال عكرمة : لو اجتمع الانس والجن على أن يؤلفوه كذلك ما استطاعوا • ولو استطاعوا لكان تأليفا توقيفيا سائغا هو الآخر •

بقى أن نشير ــ زيادة عـلى ما ذكره السيوطى أو توضيحا له ــ بعض القواعد والأصول التى قام عليها سر الترتيب ودلت دلالة قاطعة فى الوقت نفسه على أن رعاية هذه القواعد والأصول لم تكن مألوفة ولا كانت من شغل الصحابة الذين شغلوا بالعمل وعلم العمل والجهـــاد ، ولم يتفرغوا لهذه الأسرار التى أودعها الله فى الكتاب سرا فى ترتيبه كما هو فى المصحف •

قالوا : ان الأمر الكلى الذى يفيد معرفة مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أن تنظر الى الغرض التى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد عن المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات الى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام أو اللوازم التـــابعة له ، والتى تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع هذا الاستشراف الى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن •

وقالوا : ان التناسب أنواع :

منها مناسبة فواتح السور وخواتمها ، كما فى فاتحو سورة «المؤمنون» **(قد أفلح المؤمنون)** • وفى نهايتها : **(انه لا يفلح الكافرون)** • وكما فى

فاتحة سورة ص (**والقرآن ذى الذكر**) • وختامها : (**ان هو الا ذكر للعالمين**) •

ومنها مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها ، وقد أشبع السيوطى القول فى هذا النوع •

ومنها اختصاص كل سورة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة بما بدئت به ، حتى لم يكن من الممكن أن توضع (الم) فى موضع (الر) ولا (حم) موضع (طس) • وذلك لأن كل سورة بدئت بحرف ، فان هذا يغلب ويكثر فى أثناء السورة • ومثل ذلك سورة (ق) ويونس ، فقد تكررت الكلمات المحتوية على القاف والراء فى هاتين السورتين وأمثالهما من خمسين مرة الى مائتى مرة حسب طول السورة ، وهكذا فى جميع تلك السور •

ومنها التناسب بالتنظير ، والتضاد ، والاستطراد ، والتخلص الى الغرض ، وغير ذلك من الأنواع التى يطول بها المقال ، ولكنها مع الأنواع الأخرى التى ذكرها السيوطى فى كتابه هذا على كثرتها تؤكد أنها لم تكن من منهج جمع القرآن ، وأن هذا الترتيب من الوحى ، لا سيما وأن الترتيب الذى تم على يد عثمان رضى الله عنه كان سنة خمس وعشرين ، وبدت الفتنة سنة ثلاثين ، واستمرت خمس سنين ، ولم تكن الفتنة عملا مفاجئا دون مقدمات كان منها شكوى عثمان من خلاف ابن مسعود وأبى ذر رضى الله عنهما عليه ، وكان انتهاء اللجنة التى قامت بكتابة المصحف الامام وترتيبه قبل وفاة ابن مسعود ، لانه كما يروى اعترض على تولية زيد هذه المهمة ، وقد توفى ابن مسعود سنة (٣٢) ، اذن فالزمن الذى استغرقه جمع المصحف لا يتجاوز أربع سنين تقريبا، وهو زمن لايكفى مطلقا لفحص الأساليب القرآنية والمعانى التى قصد منها ، والاعتبارات الكثيرة جدا والتى قام على أساسها الترتيب ، فلم يبق الا أنه توقيف من الوحى ، وأنه كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير •

القرآن ومنهج الدعوة

من العسير أن نفصل القول فى ارتباط الترتيب النزولى والترتيب المصحفى بمنهج القرآن فى الدعوة على المستوى الانشائى لأمة العرب والمستوى الدستورى العالمى لأمة القرآن فى العالم كله — من العسير استيعاب

القول فى ذلك مفصلا فى هذه العجالة ، ولكنا نستعين الله فى رسم الخطوط العريضة التى تلقى ضوءا يكشف عن عظمة الحكيم الخبير سبحانه وهو يودع كتابه المبين وسائل الاعلام الناجحة لمن فقه وعقل وتدبر ٠

فمن المعلوم : أن الزمن الذى قضاه الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة ـ وهو نصف زمن الرسالة على وجه التقريب ـ اقتصرت دعوته فيه على العقيدة وروافدها ، ووسائل اعلائها وترسيخها على المستوى العربى القرشى المختار لنشر الدعوة فى الجزيرة العربية كلها ، ثم فى خارجها على مقتضى عموم الرسالة للبشر جميعا ٠ ولم يشرع من العبادات فى مكة غير الصلاة ، وذلك لصلتها الوثيقة بالعقيدة من حيث هى تدريب عملى متكرر فى اليوم والليلة على (الاستجماع) الروحى الواعى فى وجدان العقيدة ، بقطع العلائق النفسية ، وطهارة المكان والجسد من النجاسة الظاهرة ، والقلب من كل شاغل دنيوى حتى يتوحد الانسان المصلى ، ثم يتوجه ـ وهو على هذه الحالة من الاستجماع ـ نحو الله الواحد فى مناجاة تغمره بفيض من الايمان بعبوديته الكاملة للحق من دون الناس والشهوات ، وسلطان النفس ، وأوهام الضلالات الوثنية ٠ أما تشريع الحلال والحرام والفرائض الأخرى فقد كان بعد الهجرة ، وبعد أن آتى هذا المنهج الحكيم ثماره فى أكثر من عشر سنين قضاها الرسول صلى الله عليه وسلم بأمر ربه فى تدريب الرعيل الأول من أصحابه (عرب قريش) على أحكام العقيدة قولا وعملا ، واسلاما وايمانا ، وذوقا فى أعماق الوجدان وأغوار العقل ٠

كان لابد من هذه البداية الحكيمة ، لأن عقيدة يضطرب فيها المرء بين الاذعان والشرك ، لا يمكن أن تكون منطلقا مأمون العواقب لاقامة بناء دين لأمة رائدة ، كما أن الخلط بين التدريب على احكام العقيدة وبين تشريع الحلال والحرام فى وقت واحد مظنة التفلت من عرا الاسلام ايثارا للهوى على المثل الأعلى ، وللحياة على الشهادة فى سبيل معبود لم تنعقد عليه القلوب ٠

وكان لابد من تأسيس تلك العقيدة فى مكة بالذات من دون بلاد الجزيرة العربية ، اذ هى وحدها البيئة المعزولة عن ضجيج الفلسفات التى دارت قضاياها حول الألوهية فى دولة الروم والهند ومصر وفارس ، ولا يمكن أن تستقر عقيدة تنمو بين تلك المذاهب الا وقد احتوتها تلك الفلسفات ، وزودتها بسلاح هدام من الجدل والمراء ٠ وهى وحدها البلد التى يقوم بين ربوعها أول بيت وضع للناس : بيت الله الحرام ، وكان للبيت عندهم منزلة عظمى على شركهم ، كما كانت وظائفه كالرفادة والسقاية والسدانة وغيرها

مصدر شرف لا يدانيه شرف لمن يتولونها ، ومن هنا كان البيت الحرام بمثابة الوسيلة التعليمية الناجحة حينما تنبت النابتة الأولى للوحدانية الشاملة فى جواره ٠

وانما اختار الله العرب وقريشا بوجه خاص ليكونوا خير أمة أخرجت للناس لأسباب كثيرة نذكر من أهمها : أنهم يحملون سمات العـــالمية فى دمائهم ، وسواء كانت تلك العالمية ناشئة من الهجرات القديمة ، أو كانت من طريق تكوين العنصر ، فان دم ابراهيم الكلدانى عليه السلام يجرى الى ولده اسماعيل مختلطا بدم المصرية الصالحة (هاجر) ثم يختلط دم اسماعيل هذا بدماء جرهم اليمنية ليكون العرب من قريش خلاصة هذه السلالة العجيبـة بين سلالات البشر ، بما أودعه الله فيها من خلال الشرف ، وسلامة النفس من العقد ، والاستعداد لتفسير غير المنظور بالمنظور عن طريق المقارنة وتلمس القرائن الواضحة ٠

فالعرب رغم ما شاب طبائعهم الأصيلة من سعار المال ، وقسوة القلب ، والاستعلاء على الضعيف ، والاغراق فى المحرمات ، كانوا على استعداد للمضى على طريق الحق بنفس القوة والصرامة التى مارسوا بها نشاطهم على طريق الباطل اذا أحسنت سياستهم ، وأحكم أمرهم على توجيه منظم ٠ فقد كانت لديهم صفات كثيرة تشير الى استعداد للتفوق والزعامة ، والجمع بين وعى الروح ووعى العقل فى ثقافة واحدة ، وكان من صفاتهم البارزة : عـــدم الاستجابة للعقد النفسية ، فبقيت روحهم المعنوية عالية حصينة من كل ما يخفضها أو يحد من اندفاعها ، مما أهلهم بحق لأن يكونوا أمة رائدة لحضارة القرآن ٠

ويقول الجاحظ فى هذا الصدد : « وقد فخروا بالعمى ، وذلك كثير ، واحتجوا بالعرج ، وذلك غـــير قليل ٠٠ واذا كان الاعرابى يعتريه البرص فيجعله زيادة فى الجمال ، ودليلا على المجد ، فما ظنك بقوله فى العمى والعرج وهما لا يستقذران ولا يتقزز منهما ٠٠ وقد يفر الاعرابى فى الحرب ، فلا يقر بالجبن عن الأعـداء ، وبالنكول عن الاكفاء ، بل يخرج لذلك الفرار معنى ، ويجعل له مذهبا ، ثم لا يرضى حتى يجعل ذلك المفخر شعرا ، ويشهـره فى الآفاق » ٠

ثم يقول فى هذا الشأن : « ويكون الاعرابى شختا (ضامرا خلقـــه لا هزالا) مهزولا مقرقما (لا يشب لسوء الغذاء) فيجعل ذلك دليلا على كرم أعراقه ، وشرف ولادته ٠٠ وفى ذلك أنشدوا

قد علمت أنا أتاويان   من كرم الأعراق ضاويان

وأنشدوا كذلك : * قرقمه العز وأضواه الكرم *

والأتاويان : مثنى الأتاوى ، وهو الغريب • والضــاوى : النحيف خلقة •

وقال أبو طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم وقد عيره بعض نسائه بالعرج :

قالت عرجت فقد عرجت فما الذى   أنكرت من جلدى وحسن فعــالى

أدع الرفاجة لا أريد نماءهـــا   كيما أفيـــد رغائب الامـــوال

وأكف سهمى عن وجـوه جمـــة   حتى تصيب مقـــاتل البخـال

والرفاجة : التجارة •

ويشير الجاحظ فى كتابه عن العرجان والبرصان الى ما وراء هذا الخلق من قوة الروح المعنوية التى تعتبر سمة لازمة لحمـاية دعوة الاســلام من العدوان وهى تخوض مع أعدائها معارك ضارية داخــل الجزيرة وخارجهـــا فيقول : « فبهذه النفوس حفظك الله حفظوا أنسابهم ، وتذاكروا مآثرهم ، وقيدوا لأنفسهم بالأشعار مناقبهم ، وحاربوا أعداءهم ، وطالبوا بطوائلهـــم (جمع طائلة ، وهى الثأر) ، ورأوا للشرف حقا لم يره سواهم » •

ولم تكن هذه الروح المعنوية الفطرية عند العرب ـ لا سيما القرشيين منهم ـ دعوى عريضة دون سند من العمل السلوكى الجـاد الذى يدعمها ، ويدل على صدقها ، وعلى صلاحيتها للحركة فى مختلف المستويات ، فالواقع التاريخى يحدثنا عن التدريبات العسكرية التى تصل الى أرقى المستويات فى العصر الأول • والرسول صلى الله عليه وسلم نفسه كان يسابق عائشة رضى الله عنها ، وكان الرمى وتضمير الخيل من أهم أعمالهم العسكرية ، كما يحدثنا ابن عبد ربه فى العقد الفريد أن عمر بن الخطاب كان يمسك أذنه اليسرى بأصبعه اليمنى أو أذن فرسه اليسرى بيده اليمنى ثم يقفز على ظهر الفرس كأنما خلق هنالك • وكان ينصح المدربين العسكريين بأن ينزعوا الركب ، ويقفزوا على الخيل وأن يلبسوا الخشن من الثياب كما كان يفعل معد بن عدنان الجد الأعلى لقريش ، وكان يقول : « اياكم والسمنة ، فانها عقلة (أى وثاق) وامشوا حفاة ، فانكم لا تدرون متى تكون الجولة » •

وعلى ضوء هذه المعلومات وأشباهها نضع أصابعنا على الخطوط العريضة لأسلوب الدعوة القرآنية في العهد المكي عامة ، وفي ترتيب نزول القرآن بوجه خاص ٠٠ كان المجتمع القبلي بما فيه من المفاخر الجماعية والفردية لذلك المجتمع هو المثل الأعلى السائد بين العرب ، ومن أجله حفظت الأنساب ، وثارت الحروب ، وضرب المتنافسون عليه أكباد الابل الى الكهان للمنافرة ، وتناشدوا الأشعار ، وعقدوا الأحلاف ، وتكاثروا في المال والعدد ٠ ومن هنا كانت الموهبة العربية حبيسة في اطار لاصق بالأرض وما عليها ، ثائرة في داخل اطارها تريد أن تنطلق منه الى مداها الذي يتناسب مع قوتها ، وصلاحيتها للامتداد ، ولا أدل على ثورة تلك المواهب طلبا للانطلاق من تلك الموجات التي اندفعت من داخل الجزيرة منذ القدم في شكل هجرات الى العراق والشام ، بل والى مصر على الراجح من دلالات الآثار والتواريخ ٠

واذا كانت الموهبة أكبر من الهدف الذي تعمل له فقد تدارك الله تلك الأمة العجيبة بين أمم الارض برسول من أنفسها ، وكتاب بلغتها ، وهدف متوازن مع مواهبهم ينطلق بهم من نطاق الارض الى فسحة الغيب ٠٠ ولم يكن اقناعها بالايمان بالغيب من السهولة بمكان ٠٠ ولهذا نرى منهج الدعوة القرآنية يتجه نحو بيان الهدف الجديد الذي يتحتم أن تعمل له كل المواهب العربية ويكشف عن الأخطاء السلوكية المانعة من المضي نحو هذا الهدف ٠ ثم يكشف لهم عن قدرة الله وقهره فوق العباد ،ويتخذ من الترغيب والترهيب طريقا لزلزلة التجمد المادي الذي سيطر عليهم ٠ ويتخذ كذلك من دلالات العقل اذا استخدم الامكانيات البسيطة وغير المعقدة ، والمتاحة لهم جميعا حجة على صدق العقيدة الجديدة ، وسلطان الله على الكون ومن فيه جميعا ٠ وذلك واضح كل الوضوح في السور الأولى التي نزلت في مكة ، وكان هدفها : بناء الجيل الاول من أصلح العرب لمؤازرة الرسول صلى الله عليه وسلم في بسط سلطان الدعوة على نطاق أوسع ٠٠ ويمكن أن يتضح هذا المنهج بسهولة لمن قرأ السور الأولى على ترتيب نزولها ، وهي (العلق ، و ن ، والمزمل ، والمدثر ، والتكوير ، والأعلى ، والليل ، والفجر ، والضحى) الى آخر ما هو معلوم من ترتيب النزول ٠

وخلاصة ما في هذه السور من عناصر الدعوة : تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يدعو أمة بأسرها ، منفردا عن المال والأعوان ، تتوالى عليه الاتهامات ، ويتحد ضده جبابرة المال ، وأسرى التراث الوثني ، وعباد الأهواء ، ثم التهوين من شأن المال ، والدعوة الى اعتباره وسيلة لا غاية ٠ وتوجيه الانظار الى ما بين أيديهم من ظواهر الحياة يلتمسون منها الدليل على

الخالق القادر · وحثهم على اعادة النظر فى التواريخ الغابرة التى يقصها عليهم القرآن ممثلا فى عاد ، وارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، وفرعون ذى الأوتاد ، والى أن الله بالمرصاد لكل أمة جنحت عن طريقه ، وكفرت بأنعمه ·

وكان لابد من هدم الفكرة القبلية والاستعلائية ، أو الفكرة العنصرية عند العرب ، اذ لا تستقيم دعوة عالمية على أســـاس من العنصر والقبيلــة والجنس ،ولم تكن المواعظ وحدها كافية فى هذا السبيل ، ولذلك نجد الدعوة هنا تتخذ من العمل وسيلة لتأسيس مبدأ المساواة والاخاء أمام العقيدة بين الطبقات والأجناس جميعا ·

كان السابقون الى الاسلام هم الصورة المثالية لمجتمع الاسلام الذى اعتبر الايمان غاية الغايات ، وبذل فى سبيل تلك الغاية كل ما تعارف عليه العرب من التقاليد التى تحول دون تلك الغاية المثلى · فكان مجتمع السابقين يجمع بين كبار الاغنياء وكبار الفقراء ، بين الأحرار والعبيد ، بين العربى والفارسى والرومى والحبشى ،بين البيت الهاشمى والبيت الأموى على ما بينهما من تنافس قديم · وكان اجماع مضىء لأول مرة فى التاريخ العربى على أن بلالا العبد الفقير المستضعف الذى كان فى الصف الخلفى دائما هو سيد من سادات المسلمين ، حينما اشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه ، فكانوا يرددون فى مجالسهم « سيدنا أعتق سيدنا » ·

هذا هو الاساس الاجتماعى الذى قامت عليه تلك الركيزة الايمانية بما لها من تبعات وأخلاق ·· وحدة الشعوب والعناصر والطبقات والأجناس فى اطار الاسلام ·· لقد أصبح الاسلام وحده هى مقياس الصـــلاحية ، ومناط الفخر ، فلا مال ، ولا جنس ، ولا عصبية ، وعاد الاسلام بالمجتمع الأول الى فطرته الأولى (كلكم آدم وآدم من تراب) وأصبحت رعـــاية الرحم الأولى للانسانية غاية الغايات ، دون اعتداد بالمنافرات والمفاخرات الجاهلية الهدامة ·· لقد عاد بلال وسلمان وصهيب الى مجلس أبى بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف ، وما كان لهم بالأمس أن يرفعوا أبصـــارهم أمام أولئك

السادة إذا استثنينا أبا بكر الصديق الذى كانت له خلائق معينة فى الجاهلية أسرعت به الى الاسلام أول ما سمع به ٠

ومن عجائب المنهج القرآنى للدعوةأن تنزل سورة النحل فى مكة وفيها قوله تعالى : (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلهـا من بعد قوة أنكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) ٠ نزلت هـذه الآيـة والمسلمون يعانون الشدائد فى سبيل تكوين المجتمع الاول ، ما لهم حول ولا قوة فى الارض الا الاعتصام بالعقيدة وبالله وحده ، نزلت تحفزهم الى الامام ، وتبشرهم بأنهم سيكونون قوة عظمى ، تلتزم باجتناب الحروب التى يدفعها حب العظمة والضخامة ، وكان الى جانب ذلك ومن نفس المعين حفز الرسول أصحابه ببشريات تحققت كلها كما أوضحنا من قبل ٠

وجانب آخر من جوانب الدعوة يتصل اتصالا وثيقا بهذا التوجيـه القرآنى الذى رفع همم الأوائل من مجرد قلة مضطهدة الى آفاق أمة تسيطر على مقدرات الأمم ٠٠ ألا وهى التربية العسكرية والسياسية التى لا تستغنى عنها أمة يعدها الله لهذا الشأن العظيم ٠

وكان تشريع الصلاة بمثابة التربية العسكرية الى جانب كونه وسيلة دائمة لترسيخ العقيدة واعلائها فوق كل اعتبار ٠ فاعلان وقت الصلاة بمثابة النوبة العسكرية التى يستجيب لها جميع الجنود على الفور ٠ واختيار بعض أوقاتها من الأوقات التى تتراخى فيها الأجسـاد كالفجر والعصر هو نفس الطريقة التى لجأ اليها العسكريون المحدثون ، وصفوف الصـلاة بنظامها المشروع هى نفس الصفوف العسكرية ، واشتراط الطهـارة فى مواجهـة اشتراط البزة العسكرية المحكمة فى المعسكرات دون نظر الى النجس الذى تنطوى عليه ، واعلان الولاء فى صف الصلاة لله وحده فى مواجهة اعـلان الولاء لراية الدولة وشعارها ٠ ويتفوق الاسلام على جميع النظم العسكرية هنا بالاعتماد على الباعث القلبى والوجدان الايمانى فى تنفيذ الأوامر ، وبأن المطالبين بالمسارعة الى الصلاة هم العقلاء من الأمة من سن العاشرة الى ما لا نهاية له من العمر ، رجالا ونساء ، فالأمة كلها فى الاسلام مجندة على طريق الهدى والايمان ٠

وكانت الهجرة الأولى الى الحبشة وما صاحبهـا من مؤامرات قريش للايقاع بالمهاجرين بمثابة التدريب السياسى على التعامل مع الأمم الأخرى دون المساس بالعقيدة ، حتى لقد نجح المهاجرون نجاحا منقطع النظـير فى الجهر بقول القرآن فى المسيح أمام النجاشى الذى خشع قلبه للقرآن ٠

وعلى هذا فقد كانت الدعوة فى أول عصر النزول بمكة تعديلا للنظام العسكرى الجاهلى ، وتربية للعقيدة في قلوب المؤمنين ، وتأسيسا لمجتمع الاسلام البرىء من العنصرية والقبلية ، وتدريبا للسابقين على احكام التعامل مع الأمم الاخرى • وما كانت الهجرة الى المدينة الا وقد استكمل المسلمون صلاحيتهم للعمل والاستقلال بسياسة الأمة ، فاستحكم أمرهم ، وأصبحت العقيدة هى المثل الأعلى الذى يتسابقون الى الشهادة في سبيله، بعد أن كانوا يبذلون دماءهم فى سبيل المفاخر الزائلة •

أما نزول القرآن بالمدينة فقد أوضح الامام السيوطى أسرار شطر كبير منه حينما تكلم عن سر ترتيب سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة وأثر هذا الترتيب في امتداد الأمة ، وخروجها من حيز تربية العقيدة الى التربية السياسية الشاملة •

وخلاصة القول : أن نزول القرآن بالمدينة كان يهدف الى تكوين دولة الاسلام بكل مقوماتها في مواجهة دولة الكفر بكل مقوماتها في مكة • وكان الصراع بين هذين النموذجين لدولة الاسلام ودولة الكفر تدريبا حكيما بالغ الحكمة على الصراع بين أمة القرآن وأمم الكفر على سطح الأرض خارج الجزيرة العربية • وكانت عوامل النصر وعوامل التخاذل ، واحكام الأبعاد السياسية فى أيام الخندق وأيام الحديبة وأمثالهما من المواقف الاسلامية السياسية هى روح الاسلام فى السياسة • تلك الروح التى تقدس العهد ، وتجنح الى السلم ان جنح اليه العدو ، ولا تقدم على الحرب الا دفاعا عن النفس ، وافساحا لطريق الدعوة ان عاقته قوى الكفر • وكانت تشريعات الحلال والحرام والفرائض الأخرى حماية للنفس فى زحمة الحياة ، وتعقد الأعمال من شطط الهوى ، وسلطان الشيطان ، وحفظا لسلطان الايمان على القلوب من أن تطغى عليه الانتصارات ، أو تحد من فاعليته زهرة الحياة فى الأمم المغلوبة •

وهكذا نلمس الحكمة المعجزة والبليغة فى دعوة القرآن ، وفي ترتيب القرآن فى المصحف وما فيه من دلالة على أنه دستور أمة استكملت مقوماتها، وبقى عليها أن تدرك أسلوب العمل الدينى والسياسى فى العالم على هدى هذا الترتيب •

الإمام السيوطي وكتابه

عاش العالم الاسلامي في محنة قاسية منذ غـامت شمس الخـلافة العباسية بتسلط الجانب الالحادى من الاعتزال على رأسها ممثلا فى المأمون وفى القول بخلق القرآن ، ثم تكاثفت الغيوم بعد ذلك بفعل الترف والمجون ، وخمود الوجدان الديني ، والصراع بين الثقافات المتعارضة التى اتخذت من أرض الاسلام ميدانا لها ، وانتهى الأمر بانحلال الخلافة العباسية ، وبلـورة الصراع فى صورة مشوهة أطلق عليها اسم الخلافة الفاطمية بمصر والمغرب ، قال سادتها : انهم من بنى فاطمة الزهراء رضى الله عنها ، وفرضـوا بالقوة على المسلمين لونا ممسوخا من الفلسفة وسموه علم أسرار الدين ، وأسندوا أستاذيته لداهية اليهود يعقوب بن كلس ، وعانت مصر الأمرين من مظاهر الارهاب حينما كانت تعرض رءوس القتلى على أسـنة الرماح فى طرقـات القاهرة ، وحينما تشتد المجاعات نتيجة لاحتكار الخلفاء أقوات النـاس ، واهتز اليقين فى قلوب الناس بشيوع الخرافة حتى سجل أحد قضاة الشام أنه شهد ثورا يعلن نهاية المجاعات ، وحلول رضوان الله على الناس ، وخربت البلاد نتيجة لصراع العبيد والأتراك والذى كانت تديره جارية دسها تاجر رقيق يهودى لتكون حظية للخليفة الفاطمى ، وأما للخليفة المستنصر بالله . ولم يرض الترك الا ببيع أثاث قصر الخلافة ، وفاء لحقوقهم التى كانوا يطالبون بها ، وانتهت الخلافة الفاطمية تاركة وراءها : الخراب ، والخرافة ، وأوهام الحاكم بأمر الله ، وآثار الفكر اليهودى المشبوه ، والذى كان نتيجة لتحالف قرمطى شيعى ، ما زالت بعض فلـوله تعمل فى مجـاهل العقول فى ديار الاسلام .

وكان من الطبيعى أن يستولى المماليك العبيد المجلوبون من أقاصى آسيا على الحكم فى مصر ، ولما كان هؤلاء المماليك فرسانا بحكم اقامتهم فى المناطق

الجبلية ، وكانوا يعانون من عقدة الهزيمة والرق ، فقد حققوا فروسيتهم فى التعصب للاسلام ، وصد التتار عن دياره ، وفى الثورات التى لم تكن تخمد الا لتثور بين الأمراء ، وبين نيران تلك الثورات تخرب البلاد ، ويفقد الشعب مقومات حياته ، لا سيما وأن الارض كانت اقطاعا للامراء والجند ، ولم يكن الفلاح المصرى سوى جهـــاز انتاج محروم مما تحظى به الآلات الاخرى من عناية واصلاح .

كانت دولة المماليك بمصر عامرة بالمتناقضـــات . فبينما كان الأمراء يتصارعون فى عنف على شباب (الأويراتية) الذين كانوا يقيمون بالحسينية للممارسة الجنسية الشاذة ، ويجبون الضرائب من ضامنات المغانى ، وكن بمثابة القوادات آنذاك ، كانوا أكثر من أسلافهم الأيوبيين والفاطميين عناية بانشاء المدارس والخوانق والربط والمكتبات ، واجـــلال العلماء ، ووضعهم موضع الصدارة ، ونظرة سريعة الى ما سجله المقريزى من تلك المنشآت فى المواعظ والاعتبار تلقى ضوءا كافيا على النهضة العلمية فى جميع فروعها فى ذلك العصر .

ولأمر ما أراده الله للاسلام ، وسنة سنها فى الخلق فى عصور التدهور السياسى ، والعدوان على الاسلام من الناحية العملية نبغ عـــدد كبـير من العلماء ، ومؤلفى الموسوعات ، وحفاظ الحديث ، والمؤرخـين ، والذين كانوا يجيدون التأليف فى فروع كثيرة من العـــلم ، وكان من هـــؤلاء ابن حجر العسقلانى ، وبدر الدين العينى ، والسخاوى والبرهان البقاعى ، والسراج البلقينى ، والشيخ زكريا الانصارى ، وابن خلدون ، وجـــلال الدين عبد الرحمن السيوطى ، أحد أفراد الزمان علما وتحقيقا وحفظا ، وفقها واجتهادا فى مختلف الأصول والفروع .

ولد الامام السيوطى ليلة الأحد مستهل رجب ســـنة تسع وأربعين وثمانمائة . ويبدو أن أباه كان ذا ميول صوفية ، فقد حرص على حمله الى رجل من كبار الأولياء كان مجاورا للمشهد الحسينى يدعى أبا محمد المجذوب، ليباركه ، وحفظ القرآن كما يحكى عن نفسه وهو ابن ثمانى سنين ، ويقول : أنه أجيز بتدريس العربية فى مستهل سنة ست وستين وثمانمائة ، أى وقد

بلغ من العمر سبعة عشر عاما • وفى هذه السن ألف شرحـــا للاستــعاذة والبسملة ، وعرضه على شيخه فى الفقه علم الدين البلقينى فكتب له عليه تقريظا • ولزم العلامة سراج الدين البلقينى بعد وفاة والـــده علم الدين ، وقرأ عليه عددا كبيرا من الكتب حتى أجازه بالافتاء والتدريس ، وحضر حفل تصديره سنة ست وسبعـــين وثمانمائة ، وله من العمر سبعة وعشرون عاما •

ولما مات شيخه السراج البلقينى لزم الامام الصالح شرف الدين المناوى، وواصل عليه دراسة الفقه •

ثم لزم فى الحديث والعربية العلامة تقى الدين الشبلى الحنفى ، وواظب على دروسه حتى مات ، فلزم الشيخ محيى الدين الكافيجى ، الذى وصفه بأنه أستاذ الوجود ، ودرس على يديه التفسير ، والاصول ، والعربيـــة ، والمعانى ، أربع عشرة سنة • ثم درس على الشيخ سيف الدين الحنفى التفسير وعلوم البلاغة •

ولقد رحل السيوطى فى طلب العلم الى الشام ، والحجاز ، واليمن ، والهند ، والمغرب ، وبلاد التكرور • ويقول : انه لمـــا حج شرب ماء زمزم لأمور منها : أن يصل فى الفقه الى رتبة الحافظ ابن حجر العسقلانى • وعقد مجلس املاء الحديث فى مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، أى وعمره ثلاثة وعشرون عاما •

ويقول السيوطى : انه رزق التبحر فى ســـبعة علوم : التفســـير ، والحديث ، والفقه ، والنحو ، والمعانى ، والبديع ، والبيان على طريقة العرب، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، ويعتقد أنه وصل فى هذه العلوم السبعة سوى الفقه الى رتبة لم يصل اليها أشياخه • ولكنه يعود فيقول فيما يروى عنه الشعرانى فى طبقاته الصغرى : انه وصل فى الفقه الى مرتبة الاجتهاد الداخلى فى مذهب الشافعى ، وأن لترجيحه رأيا على رأى حجية المجتهد •

ولعل ما نلمسه واضحا فى حديث السيوطى عن نفســـه من اعتداد بعلمه ونسبة التفوق الى نفسه راجع الى عنصر الطموح المبكر الذى صاحب تفوقه بالفعل ، اذ أنه طلب العلم وألف فيه فى سن مبكرة ، وقرأ الآلاف

من الكتب ، وانقطع للعلم بالفعل ، حتى شغله ذلك عما شغل غيره من العلماء ، من التهافت على أبواب الحكام ومجالسهم يلتمسون زيف الشهرة فى تلك الرحاب الصناعية التى تضفى بريقا مؤقتا على أهلها لا يمت الى حقيقة العلم بوشيجة لها وزنها •

ومما دفعه الى الادلال بعلمه خبرته بأخلاق الكثير من علماء العصر ، وجنوحه عن منهجهم الى منهج أهل الاستقامة والصلاح والدأب فى تحصيل العلم • فهو يقول فى ختام كتابه (الاتقان) : وانى فى زمان ملأ الله قلوب أهليه من الحسد ، وغلب عليهم اللؤم حتى جرى منهم مجرى الدم من الجسد ، غلب عليهم الجهل وطمهم ، وأعماهم حب الرياسة وأصمهم ، قد نكبوا عن علم الشريعة ونسوه ، وأكبوا على علم الفلاسفة وتدارسوه ، يريد الانسان منهم أن يتقدم ويأبى الله الا أن يزيده تأخيرا • ومع ذلك لا ترى الا أنوفا مشمخرة ، وقلوبا عن الحق مستكبرة ، كلما هديتهم الى الحق كان أصم وأعمى لهم •• وأيم الله ان هذا لهو الزمان الذى يلزم فيه السكوت والمصير حلسا من أحلاس البيوت ، ورد العلم الى العمل لولا ما ورد فى صحيح الاخبار : « من علم علما فكتمه ألجمه الله بلجام من نار » •

ولعل هذا الشعور الغالب على الامام السيوطى هو الذى دعاه الى اعتزال الناس فى منزله بالروضة من مدينة القاهرة ، والانقطاع للعبادة والتأليف ، حتى ألف فى ذلك كتابا سماه « التنفيس عن الفيتا والتدريس » •

لم يكن طموح السيوطى دعوى بلا برهان ، فقد ألف وأجاد وهو صغير السن ، اذ ألف كتابه « التحبير فى علوم التفسير » وسنه ثلاثة وعشرون عاما، وعف عن ارتياد مجالس السلاطين ، بل ورد عطاءهم الذى توالى عليه ، وألف رسالة لعلماء عصره فى دحض مسلكهم الذى درجوا عليه من اللصوق بعطايا السلطان وأعتابه ، حتى أنه لما مات لم يتعرض السلطان الغورى لتركته وقال : لم يقبل الشيخ منا شيئا فى حياته ، فلا نتعرض لتركته بعد مماته ، وكان قد أرسل له عبدا وألف دينار ، فرد الدنانير ، وأخذ العبد وأعتقه •

وقد تولى السيوطى بعض الأعمال الرسمية ،فقد تولى منصب الافتاء ،

ودرس بالمدرسة الشيخونية ، ثم بالمدرسة البيبرسية ، ولكنه أنف من تلك الأعمال الرسمية ، وعزف عنها ، وآثر الخلوة الى ربه وكتبه ٠

ولقد عد السيوطى فى مقدمة كتابه « حسن المحاضرة » مؤلفاته فبلغ بها ثلاثمائة كتاب ، فى التفسير والحديث ، والقراءات ، والفقه ، والتراجم ، والنحو ، والآداب ، والأجزاء المفردة ٠ وقد بلغ « بركلمان » بكتبه أربعمائة وخمسة عشر كتابا ، وسجل له جميل العظم عددا ضخما من الكتب ، ولكن ابن اياس أبلغ عدد كتبه الى ستمائة كتاب ٠

وقد هاجم السيوطى عدد من علمـــاء العصر ، منهم شمس الـــدين السخاوى فى الضوء اللامع ، وبرهان الدين ابن الكركى ، وابن الغليف ، وأحمد بن محمد القسطلانى ، ورماه هؤلاء بالسطو على كتب المكتبة المحمودية ونسبتها الى نفسه بعد التصرف فيها بالتقديم والتأخير ٠

وقد رد السيوطى على هؤلاء ردا عنيفا ، فكتب فى ذلك كتبـــا منها : الكاوى على تاريخ السخاوى ، والجواب الزكى على قمامة ابن الكركى ، والقول المجمل فى الرد على المهمل ٠ وانضم اليه كوكبه من تلاميذه فى الرد عـلى خصومه ، منهم : قاسم الحنفى ، والسراج العبادى ، والفخر الديمى ، والأمين الاقصرائى ، والرحمانى ، وغيرهم ٠

ولنا بعد ذلك أن نضع الرجل فى الميزان ، لنجد قمة من شوامخ العلم والحفظ وتنوع الثقافة ، والاجادة فى الكثير جدا من الكتب ، فنحن أمام قمة كالدر المنثور ، والمزهر فى اللغة ، وتاريخ الخلفـــاء ، ومخطوطته الجامعـة « البذور السافرة فى أحوال الآخرة » والجامع الكبير ، وعشرات من أمثالها نقف أمام الرجل فى اجلال واحترام واكبار ٠ ولئن صح ــ جدلا ــ أنه سطا على كتب غيره ونقل منها ، فقد أحيا لنا تراثا مفقودا تماما بما أوقفنا عليه من نقول هائلة من تلك الكتب ، فله الفضل على أى حال ٠

أقول : اننا أمام رجل اذا وزعت كتبه ــ التى لا زال العديد الهائل منها مخطوطا ــ على سنى عمره ، ثم على أيامها ، فاننا نقف أمام رجل أغرق حياته كلها فى العلم والتصنيف على صورة تعد من أعاجيب الزمان التى كان فى عصره نماذج منها كابن حجر والعينى ، وقبل عصره أمثلة لها كابن الجوزى وابن القيم ، فعليه رحمة الله دائما أبدا بما أسدى لبنى دينه وللانسانية كلها من خدمات يقصر عنها الثناء ٠

وفي ليل الجمعة فى التاسع عشر من جمادى الاولى سنة احدى عشرة وتسعمائة أسلم السيوطى روحه الطاهرة الى بارئها ، ودفن بحوش قوصون ، خارج باب القرافة بالقاهرة ، وما زال حيا بيننا بكتبه التى يرجع اليهـا الباحثون فى كل دقيقة من الزمان ، متعرضا بهذا الفضل لنفحات الرحمـة الالهية المودعة لمن لم ينقطع عمله بعد موته ·

كتاب تناسق الدرر وأهميته :

اسم هذا الكتاب « تناسق الدرر فى تناسب السـور » · وقد آثرنا تغيير اسمه على الوجه المثبت على واجهة هذه المطبوعة ، واثبات الاسم الأصلى فى داخله لسبب سنتحدث عنه فى منهج التحقيق ·

ويوجد من هذا الكتاب نسخة واحدة بمصر ضمن مجموعـة رقم ٤١٩ تفسير تيمور بدار الكتب المصرية ، ويقع فى اثنتين وثلاثين ورقة ، وعـدد سطورها مختلف ، بين ثمانية وعشرين سطرا ، واثنين وثلاثين سطرا ، وهو مكتوب بخط بين النسخ والفارسى ، والنسخة جيدة ، ويبدو أنها نسخت فى عصر المؤلف ، كما يدل على ذلك نوع الحبر ، وطريقة الكتابة ، ويوجد بها بعض الاضطراب فى نصوص أمكن تقويمها من أصـولها ، كحديث تحزيب القرآن الذى جاء على صورة مشوهة للغاية فى المخطوطة ، وكـذلك بعض النقول الأخرى ، أما الأخطاء الأخرى فهى قليلة وهينة ، ولذلك لم نحتج الى اثباتها فى الهامش ·

وقد سبق السيوطى فى التأليف فى هذا الباب فيما نعلم : أبو جعفر ابن الزبير فى « البرهان » ويقول السيوطى : انه لم يقف عليه · وفى عصره برهان الدين البقاعى فى « نظم الدرر » ·

والكتاب كما يقول السيوطى ـ صادقا ـ من ولاد نظـره ، ومحض تفكيره ، الا ما نقله عن غيره وعزاه اليه وهو قليل ، فهو فيما نرى تعقيب على كتاب البقاعى الكبير ، واستدراك عليه ·

ويقول السيوطى : ان كتابه هذا عجالة من موسـوعته الكبرى التى أشار اليها فى مقدمة هذا الكتاب ، والتى سماها « أسرار التنزيل » · ولم نعثر على أسرار التنزيل للسيوطى · وانما عثرنا على أسرار التنزيل للفخر الرازى ، وقد توفى الرازى عن الجزء الاول من أسراره ولم يكملـه ، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية ، ولم يشر اليه السيوطى رغم اعجابه بالفخر

الرازى الذى ردده من خلال كتابه هذا · فالظاهر أن السيوطى أراد أن يكمل أسرار التنزيل للرازى ، أو يكتب كتابا باسمه ينهج فيه منهجا بعيدا عن اتمامه ، رغم أنه أشار الى مسائل فى الاتقان قال : انه ذكرها فى أسرار التنزيل ، مثل تعليل خروج سورة الروم والقلم عن سنن السور المفتتحة بالحروف المقطعة فى اتباع تلك الحروف بذكر القرآن أو وصفه ·

كان الرجل مستجيبا لطموحه ، فبدأ فى أسرار التنزيل ، وانتهى من منهج الرازى الجدلى ، ويعارض به موسوعة البقاعى ، ولكن الموت عاجله قبل الاتقان وما زال ماضيا فى أسراره ، وكتب كتابه هذا الذى نقدمه كذلك أثناء سيره فى أسراره ، اذ أنه أشار اليه فى الاتقان مرارا ، وأشار الى الاتقان فى هذا الكتاب مما يدل على أن السيوطى كان يعمل فى تأليف عدد من الكتب مرة واحدة ، ولا ينقطع لكتاب حتى ينتهى منه ، وتلك سمة من سمات الطموح والتطلع والانقطاع للعلم وعلو الهمة ·

ولقد انتهى من كتابة هذا الكتاب سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، وكان قد بلغ من العمر أربعة وثلاثين عاما ، وقبل وفاته بثمانية وعشرين عاما · وعلى هذا فالغالب أن أسرار التنزيل له ، اما أنه لم يتمه ، وكان مشروعا من مشروعاته ، واما أنه أتمه وفقد فيما فقد من التراث ، أو توارثه بعض أصحاب المكتبات الخاصة ، فالله أعلم بمصيره ·

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أهمية قضية التراث فى عصرنا الحاضر من جهة ، والى أهمية هذه الدراسة القرآنية من جهة أخرى ·

أما التراث فيتعرض فى عصرنا الحاضر لهجمات هزيلة من الأقزام العجزة ، وأهل الضحالة والقصور ، وأدعياء الفكر ، الذين يحكون انتفاخا صور العمالقة ، وهم خواء على هواء فى نسيج العنكبوت · قالوا : ان التراث يمثل عصره ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أمعنوا فى السخف فقالوا : ان عقلية مؤلفى التراث عقلية ضحلة ضيقة ، ودعوا الى كتابات تمثل العصر ، ومواجهة المذاهب الهدامة الحديثة · واعتدل بعضهم فقال : ان انتقاء المفيد من التراث أمر ضرورى ، على أن يعرض بأسلوب العصر · وما هذه الدعوة اللئيمة الا استجابة لمخطط يهدف الى صرف العرب والمسلمين عن الأسس التى قامت عليها حضارتهم ، وتوجيههم الى لون من غثاء الفكر لا يبدىء ولا يعيد ، تكرار لا غناء فيه ، فقير فى الجديد ، عاجز عن مواجهة مذاهب الهدم · فلو أنك أحصيت المكرر من الافكار ، وحذفته من كتب العصر ، ومحوت الحشو من أساليب تلاميذ المدارس الثانوية ، لما بقى الا كلمات اما مسروقة من

التراث ، واما نتيجة لبعض التوجيهات التى خلفها علماء الجيل الماضى • وعلى العكس ، لا تجد كتابا يعارض كتابا آخر فى التراث الا وفيه زيادات مفيدة ، وتهذيب لسابقه • أما علاج مذاهب الهدم عن طريق الاساليب الخطابية ، واغفال بناء الذات المؤمنة من الجذور ، فمثله كمثل من يعالج المصدور بالمساحيق الملونة لوجهه بلون أهل الصحة والشباب ، ويترك (الميكروب) يفترس الذات دون هوادة •

وفوق كل ذلك فالتراث هو النسب والصهر بين المسلمين وتاريخهم وثقافتهم ، وأصول حضارتهم ، والداعون الى اغفاله كالداعين الى الغاء الشهادات المثبتة للانساب ، وأن يستبدل بها من تلك التى تحرر للقطاء المجهولى النسب • ومن هنا كانت أهمية التراث النفسية والعقلية التى لا ينكرها الا أهل الغفلة أو العملاء ، وهما شر مستطير وخطير •

وأهمية الدراسات القرآنية ترجع الى أهمية فرع من فروع التراث ، واليها ترجع أهمية هذا الكتاب ، فقد كثرت كتب التفسير التقليدية ، وأهملت الجوانب الأخرى التى لم تتعرض لها التفاسير ، أو لم تستوعبها مجتمعه ، كموضوع التكرار ، والترتيب ومقاصد القرآن ، وعجائب الاساليب والمشكلات • وهى موضوعات قد استغلها أعداء الاسلام أسوأ استغلال ، وفقد أهل العصر السلاح القوى الكفيل بحماية الشباب والشيوخ من آثار هذا الاستغلال •

لهذا كان هذا الكتاب من أهم ما يجب بعثه ودراسته ، الى جانب كتابنا الاول من سلسلة نوادر التراث ، وهو « أسرار التكرار فى القرآن » للكرمانى فهو يحسم القول فى مشكلة طال فيها الكلام هى ترتيب السور فى القرآن ، وقد ضيق السيوطى الخلاف حولها الى أضيق الحدود ، ورد عليها ، وساق كتابه دليلا على أن الترتيب توقيفى ، وأن القرآن بآياته وترتيبه وحى لا عمل للبشر فيه •

وقديما ذهب الامام بدر الدين الزركشى فى البرهان الى أن الخلاف فى هذه القضية لفظى « لأن النبى صلى الله عليه وسلم رمز اليهم بالترتيب ، لعلمهم بأسباب نزوله ، ومواقع كلماته ، ولهذا قال مالك : انما الفوا القرآن على ما كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه وسلم ، مع قوله بأن ترتيب السور باجتهاد منهم ، فآل الخلاف الى أنه : هل هو بتوقيف قولى ، أو بمجرد استناد فعلى ، بحيث بقى لهم فيه مجال نظرى » • وسبقه الى ذلك أبو جعفر ابن الزبير •

منهج التحقيق :

بعد نسخ الكتاب من المخطوطة قمت باجراء التحقيقات الآتية :

١ ـ تقويم الأخطاء اللفظية ، وتقويم الخلل الأسلوبى الواقع فى النصوص بالرجوع الى مصادرها من الحديث وأقوال العلماء ، حتى أصبحت فى صورتها الحقيقية ٠

٢ ـ مراجعة النصوص القرآنية على المصحف ، واثبات سورها وأرقام آياتها بين قوسين عقب الآيات ٠

٣ ـ اثبات الآيات التى أشار الى موضوعاتها المؤلف ولم يثبتها من واقع المصحف ، تماما لفائدة القارىء ، وتوفيرا لوقته ، ووضعنا كل ذلك فى الهوامش ٠

٤ ـ اثبات ما فتح الله به من أسرار الترتيب مما لم يذكره المؤلف مؤيدا بالآيات ٠

٥ ـ تخريج الأحاديث والآثار ، ورد أقوال المفسرين الى مصادرها ، وكذلك أقوال العلماء ما أمكن ذلك ٠ واثبات المصادر بارقام أجزائها وصفحاتها ٠

٦ ـ ضبط الأعلام ، والتعريف بالمجهول منها ٠

٧ ـ وضع دراسة وافية للموضوع تناولت فيها عظمة القرآن ،وترتيبه النزولى والمصحفى ، وربطت بين الموضوعين ببيان الكثير من أسرار الترتيب التى لم يتعرض لها المؤلف ، فقد نظرنا الى الموضوع نظرة شاملة مرتبطة بحضارة الاسلام ، والاعتبارات النفسية والتربوية التى عنى بها القرآن ، واثبات الاعجاز القرآنى من خلال تلك الدراسة ٠

وهذا المنهج فى دراسة التراث قد اتبعته من قبل فى كتاب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) لأبى بكر الخلال ، واعتزمت بحول الله أن أتبعه فى كل ما أقوم بنشره ، حتى تتكامل الموضوعات ، ويفيد منها أكبر عدد ممكن من القراء والباحثين ، وحتى تحل مشكلة القصور فى أداء كتب التراث أهدافها كاملة ، فما كان لأهل القرون الماضية أن يدركوا ما سيجد بعد

عصورهم من قضايا الحياة حتى يعصموا المسلمين من آثارها ، وهو العمل الذى قمنا به والحمد لله ٠

٨ ـ زدنا بعض كلمات أو جمل لتوضيح المعنى ، ووضعناها بين علامتين هكذا (   ) ٠

٩ ـ غيرنا عنوان الكتاب بما يتناسب مع العصر ، وبعدا عن الأسجاع المألوفة فى عصر المؤلف ٠

والله نسأل العون على المضى فى رسالتنا هذه ، وأن يمكن لنا من أسباب خدمة كتابه الكريم ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه ، وأن يرزقنا الاخلاص له وحده فيه ، وأن ينفع به المسلمين ، وأن يجزى عنا نبينا ورسولنا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ما هو أهله ، وأن يلحقنا بحزبه . انه سميع قريب مجيب ٠

القاهرة فى { شعبان ١٣٩٦ هـ
أغسطس ١٩٧٦ م }

عبد القادر أحمد عطا



بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى أنزل كتابه المجيد على أحسن أسلوب، وبهر بحسن أساليبه وبلاغة تركيبه القلوب، نزله آيات بينات، وفصله سوراً وآيات، ورتبه بحكمته البالغة أحسن ترتيب، ونظمه أعظم نظام بأفصح لفظ وأبلغ تركيب، صلى الله على من أنزِل إليه لينذر به وذكرى، ونزّله على قلبه الشريف فنفى عنه الحرج وشرح له صدراً، وعلى آله وصحبه مُهَاجِرة ونصراً. وبعد:

فإن الله سبحانه منّ علىّ بالنظر فى مواقع نجومه، وفتح لى أبواب النظر فيه إلى استخراج ما أودع فيه من علومه، فلا أزال أسرّح النظر فى بساتينه من نوع إلى نوع، وَأَسْتَنسِح[1] الخاطر فى ميادينه فيبلغ الغرض ويرجع وهو يقول: لا رَوْع، فنقت[2] عن أنواع علومه ولقبتها، وأودعت ما أوعيت منها فى دواوين وأعيتها، ونقبت عن معادن معانيه وأبرزتها، وأوقدت عليها نار القريحة وميزتها، وألفت فى ذلك جامعاً ومفرداً، ومطنباً ومقصداً[3]، ومن خلق لشىء فإلى تيسّره، ومن أحب شيئاً أكثر من ذكره.

وإن مما ألفت فى تعلقات القرآن كتاب «أسرار التنزيل» الباحث عن أساليبه، المبرِز أعاجيبَه، المُبِين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، الكاشف

(١) أستسنح خاطرى: استفحصه. أى: أتأمل به متفحصا.
(٢) نقت عن كذا: شققت عنه وكشفت عن سره.
(٣) مطنبا من الاطناب، وهو: التطويل. ومقصدا من القصد، وهو: الاختصار.

عن وجه إعجازه ، الداخل إلى حقيقته من مجازه ، المُطْلِع على أفانينه ، المبدع فى تقرير حججه وبراهينه ، فإنه اشتمل على بضع عشرة نوعا .

الأول : بيان مناسبات ترتيب سوره ، وحكمة وضع كل سورة منها .

الثانى : بيان أن كل سورة شارحة لما أُجمِل فى السورة التى قبلها .

الثالث : وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التى قبلها .

الرابع : مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سيقت له ، وذلك براعة الاستهلال .

الخامس : مناسبة أوائل السور لأواخرها .

السادس : مناسبات ترتيب آياته ، واعتلاق بعضها ببعض ، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها .

السابع : بيان أساليبه فى البلاغة ، وتنويع خطاباته وسياقاته .

الثامن : بيان مااشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها ، كالاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، والالتفات ، والتورية ، والاستخدام ، واللف والنشر ، والطباق ، والمقابلة ، وغير ذلك . والمجاز بأنواعه ، وأنواع الإيجاز والإطناب .

التاسع : بيان فواصل الآى ، ومناسبتها للآى التى ختمت بها .

العاشر : مناسبة أسماء السور لها .

الحادى عشر : بيان وجه اختيار مرادفاته دون سائر المرادفات .

الثانى عشر : بيان القراءات المختلفة ، مشهورها وشاذها ، وما تضمنته من المعانى والعلوم ، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه .

الثالث عشر : بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات فى القصص وغيرها بالزيادة والنقص ، والتقديم والتأخير ، وإبدال لفظة مكان أخرى ، ونحو ذلك .

وقد أردت أن أفرد جزءاً لطيفاً فى نوع خاص من هذه الأنواع ، هو : مناسبات ترتيب السور ، ليكون عجالة لمريده ، وبغية لمستفيده ، وأكثره من نتاج فكرى ، وولاد نظرى ، لقلة من تكلم فى ذلك ، أو خاض فى هذه المسالك ، وما كان فيه لغيرى صرحت بعزوه إليه ، ولا أذكر منه إلا ما استُحْسِن ، ولا انتقاد عليه ، وقد كنت أولا سميته « نتائج الفكر فى تناسب السور » لكونه من مستنتجات فكرى كما أشرت إليه ، ثم عدلت وسميته « تناسق الدرر فى تناسب السور » لأنه أنسب بالمسمى ، وأزيد بالجناس .

وبالله تعالى التوفيق ، وإياه أسأل حلاوة التحقيق ، بمنه ويمنه .

* * *

مقدمة

فى ترتيب السور

اختلف العلماء فى ترتيب السور ، هل هو بتوقيف من النبى ﷺ ، أو باجتهاد من الصحابة ، بعد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفى ، والقطع بذلك.

فذهب جماعة إلى الثانى ، منهم : مالك ، والقاضى أبو بكر فى أحد قوليه ، وجزم به ابن فارس .

ومما استدل به لذلك : اختلاف مصاحف السلف فى ترتيب السور ، فمنهم من رتبها على النزول ، وهو مصحف على ، كان أوله « اقرأ » ثم البواقى على ترتيب نزول المكى ، ثم المدنى ، ثم كان أول مصحف ابن مسعود « البقرة » ثم « النساء » ثم « آل عمران » على اختلاف شديد ، وكذا مصحف أُبَىّ بن كعب وغيره ، على ما بينته فى الإتقان[1] .

وفى المصاحف لابن أشتة بسنده عن عثمان أنه أمرهم أن يتابعوا الطُّوَل[2].

وذهب جماعة إلى الأول ، منهم : القاضى أبو بكر فى أحد قوليه ، وخلائق قال أبو بكر بن الأنبارى : أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ، ثم فرقه فى بضع

---

(١) انظر هذا الخلاف فى المصاحف فى الجامع لاحكام القرآن للقرطبى : ١/٥١ . والاتقان : ١/٢١٦ وفيه أن ابن فارس يجزم بترتيب الطول والمئين والمفصل بالتوقيف . أما وضع كل مجموعة تلو الاخرى فمن الصحابة .

(٢) انظر الاتقان : ١/٢١٦ . من طريق اسماعيل بن عياش الى أبى محمد القرشى . واسماعيل فيه كلام (الضعفاء . من اسمه اسماعيل) . وابن أشته هو محمد ابن عبد الله بن أشتة أحد العلماء بالعربية والقراءات ألف فى المصاحف وشواذ القراءات توفى سنة ٣٠٦ (طبقات القراء : ٢/١٨٤) .

وعشرين سنة ، فكانت السورة تنزل لأمر ينزل ، والآية جواباً لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي صلى الله عليه وسلم على موضع الآية والسورة ، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف ، كان عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن قدم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم القرآن[1] .

وقال الكرماني في البرهان : ترتيب السور هكذا هو عند الله تعالى في اللوح المحفوظ ، وهو على هذا الترتيب ، وكان يعرض النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل ما اجتمع لديه منه ، وعرضه صلى الله عليه وسلم في السنة التي توفي فيها مرتين[2] . وكذا قال الطيبي .

وقال ابن الحصار[3] : [ترتيب السور][4] ، ووضع الآيات موضعها إنما كان بالوحي .

وقال البيهقي في المدخل : كان القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وسلم مرتباً سوره وآياته على هذا الترتيب ، إلا الأنفال وبراءة للحديث الآتي فيها .

ومال ابن عطية إلى أن كثيرا من السور كان قد علم ترتيبها في حياته ، صلى الله عليه وسلم كالسبع الطوال ، والحواميم ، والمفصل ، وأن ما سوى ذلك يمكن أن يكون قد فوض الأمر فيه إلى الأمة بعده .

وقال أبو جعفر بن الزبير : الآثار تشهد بأكثر مما نص عليه ابن عطية ، ويبقى منها القليل يمكن أن يجري فيه الخلاف ، لقوله صلى الله عليه وسلم : « اقرأوا

---

(١) الجامع لاحكام القرآن : ٦٠/١ وأسرار التكرار في القرآن ص ٢٣ . والاتقان : ٢١٧/١ .

(٢) الكرماني : محمود بن حمزة بن نصر . وكتابه « البرهان » نشرناه باسم « أسرار التكرار في القرآن » بدار الاعتصام بالقاهرة . انظر ص ٢٣

(٣) ابن الحصار وهو : علي بن محمد بن محمد بن ابرهيم الخزرجي الاشبيلي . له مؤلفات منها : أصول الفقه ، والناسخ والمنسوخ ... توفي سنة ٦١١ هـ (التكملة لابن الابار ٦٨٦) .

(٤) ما بين الحاصرين زدناه من الاتقان : ٢١٦/١

الزهراوين البقرة وآل عمران » . رواه مسلم[1] . وكحديث سعيد بن خالد أنه ﷺ صلى بالسبع الطوال فى ركعة ، وأنه كان يجمع المفصل فى ركعة . أخرجه ابن أبى شيبة[2] . وأنه ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قرأ قل هو الله أحد ، والمعوذتين . آخرجه البخارى[3] وفيه عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطـه والأنبياء : « إنهن من العِتاق الأول ، وهنَّ من تِلادى »[4] .

وقال أبو جعفر النحاس : المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ ، لحديث: « أعطيت مكان التوراة السبع الطوال ، وأعطيت مكان الإنجيل المثانى ، وفُضِّلت بالمفصَّل » . أخرجه أحمد وغيره[5] . قال : فهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذ عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه من هذا الوقت هكذا .

وقال الحافظ ابن حجر : ترتيب معظم السور توقيفى ، لحديث أحمد وأبى داود عن أوس الثقفى قال : كنت فى وفد ثقيف ، فقال رسول الله ﷺ : « طرأ علىّ حزبى من القرآن ، فأردت ألا أخرج حتى أقضيه » . قال أوس : فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ قلنا : كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : نحزِّبه ثلاث سور ،

---

(1) أخرجه مسلم فى فضائل القرآن مطولا عن أبى أمامة الباهلى : ٩١٣/٢ . وأبو داود : ٨٨/١ ، ٨٩ مختصرا والهيثمى فى مجمع الزوائد عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم يقرأ البقرة وآل عمران والنساء : ٢٧٢/٢ وعزاه الى أبى يعلى .

(2) حديث (السبع الطوال) أخرجه أيضا الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٦٢/٧ بلفظ (من أخذ السبع الطوال فهو خير) وعزاه للبزار وأحمد . وأخرج رواية أخرى ٢٧٤/٢ أنه قرأ السبع الطوال فى ليلة .
وحديث (كان يقرأ المفصل فى ركعة) أخرجه مسلم فى فضائل القرآن : ٢٠٤/٢ عن عبد الله بن مسعود مطولا وفيه (عشرون سورة من المفصل فى ركعة) . والبخارى فى التفسير : ٢٤٠/٦ وفيه (ثمانى عشرة سورة من المفصل) .

(3) أخرجه البخارى فى التفسير عن عائشة : ٢٣٣/٦ . والترمذى فى التفسير : ٣٤٧/٩ ، ٣٤٨ بتحفة الاحوذى . وفيه أنه كان يجمع يديه ، وينفث فيهما ، ويقرأ ، ويمسح بهما ما استطاع من جسده .

(4) أخرجه البخارى فى التفسير : ١٨٩/٦ . والعتاق : اللاتى نزلن قديما بمكة . والتلاد : القديم .

(5) أخرجه الامام أحمد فى المسند : ١٢٤/٣ عن واثلة بن الاسقع . والهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٥٨/٧ وعزاه للطبرانى أيضا عن واثلة وأبى أمامة .

وخمس سور ، وسبع سور . وتسع سور ، وإحدى عشرة سورة ، وثلاث عشرة سورة ، وحزب المفصل ، من « ق » حتى نختم[1].

قال : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو عليه فى المصحف الآن كان على عهد النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال بعضهم : لترتيب وضع السور فى المصحف أسباب تطلع على أنه توقيفى صادر من حكيم .

الأول : بحسب الحروف ، كما فى الحواميم ، وذوات (الر) .

الثانى : لموافقة آخر السورة لأول ما بعدها . كآخر الحمد فى المعنى . وأول البقرة .

الثالث : الوزن فى اللفظة . كآخر (تبت) وأول (الإخلاص) .

الرابع : لمشابهة جملة السورة لجملة الأخرى ، كالضحى وألم نشرح .

وقال بعضهم : إذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته فى غاية المناسبة لما ختمت به السورة التى قبلها ، ثم يخفى تارة ، ويظهر أخرى .

وأخرج ابن أبى شيبة عن ربيعة : أنه سئل: لم قدمت البقرة وآل عمران. وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة بمكة .وإنما نزلتا بالمدينة ؟ فقال : قدمتا ، وأُلِّفَ القرآن على علم ممن ألفه . وقد اجتمعوا على علمهم بذلك . فهذا مما ينتهى إليه . ولا يُسأل عنه[2] .

فإن قلت : فما عندك فى ذلك ؟

قلت : الذى عندى أولا : تحديد محل الخلاف ، وأنه خاص بترتيب سور

---

(1) اخرجه أبو داود : ١٤٠/١ وفيه (وحزب المفصل وحده) . والامام احمد فى المسند ٤٣/٥ . والحديث مضطرب فى الاصل ، وصححناه من ابى داود .

(2) نقل القرطبى فى تفسيره : ٥٢/١ هذا الخبر ، وعزاه الى ابن وهب فى جامعه والنص مضطرب فى الاصل ، وقومناه من القرطبى .

الأقسام الأربعة ، وأما نفس الأقسام الأربعة ، من تقديم الطوال ، ثم المئين ، ثم المثانى ، ثم المفصل ، فهذا ينبغى أن يقطع بأنه توقيفى ، وأن يدعى فيه الإجماع ، وإن لم أر من سبقنى إلى ذلك . وإنما دعانى إلى هذا أمران :

أحدهما : ما تقدم من الأحاديث قريباً ، وحديث ابن عباس الآتى فى الأنفال .

والثانى : أن المصاحف التى وقع فيها الإختلاف فى الترتيب اتفقت على ذلك ، فإن مصحف أبى بن كعب وابن مسعود كلاهما قدم فيه الطوال ، ثم المثانى ، ثم المفصل ، كمصحف عثمان ، وإنما اختلفا فى ترتيب سور كل قسم كما بينت فى الإتقان [1] .

فإذا تحرر ذلك ، ونظرنا إلى محل الخلاف ، فالمختار عندى فى ذلك : ماقاله البيهقى ، وهو : أن ترتيب كل السور توقيفى ، سوى الأنفال وبراءة .

ومما يدل على ذلك ويؤيده : توالى الحواميم ، وذوات (الر) ، والفصل بين المسبحات ، وتقديم (طس) على القصص ، مفصولا بها بين النظيرتين [طسم الشعراء ، وطسم القصص] فى المطلع والطول ، وكذا الفصل بين الإنفطار والإنشقاق بالمطففين ، وهما نظيرتان فى المطلع والمقصد ، وهما أطول منها ، فلولا أنه توقيفى لحكمة لتوالت المسبحات ، وأخرت (طس) عن القصص ، وأخرت (المطففين) أو قدمت ، ولم يفصل بين (الر) و (الر) .

وليس هنا شىء أعارض به سوى اختلاف مصحف أبى وابن مسعود ، ولو كان توقيفيا لم يقع فيهما اختلاف ، كما لم يقع فى [ترتيب] الآيات .

---

(١) الاتقان : ١/٢٢٢ ــ ٢٢٤ نقلا عن ابن أشتة فى المصاحف من راويه ابى جعفر الكوفى وجرير بن عبد الحميـد .

وقد من الله عليّ بجواب لذلك نفيس ، وهو : أن القرآن وقع فيه النسخ كثيرا للرسم ، حتى لسور كاملة ، وآيات كثيرة ، فلا بدع أن يكون الترتيب العثمانى هو الذى استقر فى العرضة الأخيرة ، كالقراءات التى فى مصحفه ، ولم يبلغ ذلك أبيا وابن مسعود ، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه فى مصاحفهما من القراءات التى تخالف المصحف العثمانى ، ولذلك كتب أبى فى مصحفه سورة الحفد ، والخلع ، وهما منسوختان[1] .

فالحاصل أنى أقول : ترتيب كل المصاحف بتوقيف ، واستقر التوقيف فى العرضة الأخيرة على القراءات العثمانية ، ورتب أولئك على ما كان عندهم ، ولم يبلغهم ما استقر ، كما كتبوا القراءات المنسوخة المثبتة فى مصاحفهم بتوقيف ، واستقر التوقيف فى العرضة الأخيرة على القراءات المنسوخات ، ولم يبلغهم النسخ .

* * *

« سورة الفاتحة »

إفتتح سبحانه كتابه بهذه السورة ، لأنها جمعت مقاصد القرآن ، ولذلك كان من أسمائها : أم القرآن ، وأم الكتاب ، والأساس[2] . فصارت كالعنوان وبراعة الاستهلال .

قال الحسن البصرى : إن الله أودع علوم الكتب السابقة فى القرآن ،

---

(1) الاتقان : ٢٢٣/١ ، ٢٢٦ عن ابن أشتة فى المصاحف وهما سورتا القنوت فى الوتر ، قال الحسين بن المنادى فى كتابه الناسخ والمنسوخ : ومما رفع رسمه من القرآن ولم يرفع من القلوب حفظه سورتا القنوت فى الوتر ، وتسمى بسورتى الخلع والحفد (الاتقان : ٨٥/٣) . وهى :
(اللهم انا نستعينك ونستغفرك ، ونثنى عليك ولا نكفرك ، ونخلع ونترك من يفجرك ، اللهم اياك نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، واليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ، ونخشى عذابك ، ان عذابك الجد بالكفار ملحق وانظر (مجمع الزوائد : ١٢٠/٩) .

(2) الكشاف : ٤/١ بولاق . ومن أسمائها : السبع المثانى ، والقرآن العظيم ، والوافية ، والكنز (الاتقان : ١٨٩/١ — ١٩١) .

ثم أودع علوم القرآن فى المفصل ، ثم أودع علوم المفصل فى الفاتحة . فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة . أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان(١) .

وبيان اشتمالها على علوم القرآن قرره الزمخشرى ، باشتمالها على الثناء على الله بما هو أهله ، وعلى التعبد ، والأمر والنهى ، وعلى الوعد والوعيد ، وآيات القرآن لا تخرج عن هذه الأمور(٢) .

قال الإمام فخر الدين : المقصود من القرآن كله تقرير أمور أربعة : الإلهيات ، والمعاد ، والنبوات ، وإثبات القضاء والقدر . فقوله : (الحمد لله رب العالمين) يدل على الإلهيات ، وقوله : (مالك يوم الدين) يدل على نفى الجبر ، وعلى إثبات أن الكل بقضاء الله وقدره . وقوله (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة يدل على إثبات قضاء الله ، وعلى النبوات ، فقد اشتملت هذه السورة على المطالب الأربعة ، التى هى المقصد الأعظم من القرآن(٣) .

وقال البيضاوى : هى مشتملة على الحكم النظرية ، والأحكام العملية ، التى هى سلوك الصراط المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ، ومنازل الأشقياء(٤) .

وقال الطيبي : هى مشتملة على أربعة أنواع من العلوم التى هى مناط الدين : أحدها : علم الأصول ، ومعاقدة معرفة الله عز وجل وصفاته ، وإليها

---

(١) الشعب : ٢ ورقة ٨٧ أ. دار الكتب المصرية .
(٢) انظر : الكشاف : ٤/١ وفيه (التعبد بالامر والنهى) .
(٣) مفاتيح الغيب : ٦٥/١
(٤) تفسير البيضاوى : ٣٥/١ بحاشية الشهاب الخفاجى .

الإشارة بقوله : (رب العالمين ◦ الرحمن الرحيم) . ومعرفة المعـــاد ، وهو المومأ إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

وثانيها : علم مايحصل به الـكمال ، وهو علم الأخلاق ، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية ، والالتجـاء إلى جنـاب الفردانية ، والسلوك لطريقة الاستقامة فيها ، وإليه الإشارة بقوله : (أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

قال : وجميع القرآن تفصيل لمـا أجملته الفاتحة ، فإنها بنيت على إجمـال مايحويه القرآن مفصلا ، فإنها واقعة فى مطلع التنزيل ، والبلاغة فيه : أن تتضمن ما سيق الـكلام لأجله ، ولهذا لاينبغى أن يقيد شيء من كلماتها ما أمكن الحمل على الإطلاق[1] .

وقال الغزالى فى « خواص القرآن » : مقاصد القرآن ستة ، ثلاثة مهمة ، وثلاثة تتمة .

الأولى : تعريف المدعو إليه ، كما أشير إليه بصدرها ، وتعريف الصراط المستقيم ، وقد صرح به فيها ، وتعريف الحال عند الرجوع إليه تعالى ، وهو الآخرة ، كما أشير إليه بقوله : (مالك يوم الدين) .

والأخرى : تعريف أحوال المطيعين ، كما أشار إليه بقوله . (الذين أنعمت عليهم) . وتعريف منازل الطريق ، كما أشير إليه بقوله : (إياك نعبد وإياك نستعين)[2] .

---

(١) الطيبى هو : الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبى الامام المشهور ، وأحد كبار علماء الحديث والتفسير واللغة . توفى عام ٧٤٣ هـ . انظر (الدر الكامنة لابن حجر : ١٥٦/٢ ، والبدر الطالع للشوكانى : ٢٢٩/١ . وبغية الوعاة للسيوطى : ٢٢٨ . وكلامه هذا فى شرح الكشاف له . مخطوط بالازهرية : حـ ١ ورقة ٢٩ أ .

(٢) خواص القرآن الكريم ص ٣٧

قال بعض الأئمة : تضمنت سورة الفاتحة : الإقرار بالربوبية ، والالتجاء إليها فى دين الإسلام ، والصيانة عن دين اليهود والنصارى ، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين ، وآل عمران مكملة لمقصودها .

فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم ، وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم ، ولهذا ورد فيها كثير من المتشابه لما تمسك به النصارى .

فأوجب الحج فى آل عمران ، وأما فى البقرة فذكر أنه مشروع ، وأمر بإتمامه بعد الشروع فيه [1] . وكان خطاب النصارى فى آل عمران ، كما أن خطاب اليهود فى البقرة أكثر ، لأن التوراة أصل ، والإنجيل فرع لها ، والنبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر إلى المدينة دعا اليهود وجاهدهم ، وكان جهاده للنصارى فى آخر الأمر [2] كما كان دعاؤه لأهل الشرك قبل أهل الكتاب ، ولهذا كانت السور المكية فيها الدين الذى اتفق عليه الأنبياء ، فخوطب به جميع الناس ، والسور المدنية فيها خطاب من أقر بالأنبياء من أهل الكتاب والمؤمنين ، فخوطبوا بيا أهل الكتاب ، يابنى إسرائيل ، يا أيها الذين آمنوا .

وأما سورة النساء فتضمنت أحكام الأسباب التى بين الناس ، وهى نوعان : مخلوقة لله ، ومقدورة لهم ، كالنسب والصهر ، ولهذا افتتحت بقوله : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) . وقال :

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : (واتموا الحج والعمرة لله فان أحصرتم فما استيسر من الهدى ١٩٦) الاية . من سورة البقرة .

(٢) ثبت فى التاريخ أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاهد اليهود وأخرجهم من دار الاسلام ، ولم يحدث مثل ذلك للنصارى وانما بدأت مجادلة اياهم بوفد نجران الذى تحدثت عنه سورة المائدة . وأخرج الهيثمى فى مجمع الزوائد أنه قال لعلى : « يا على ، ان أنت وليت هذا الامر بعدى ، فأخرج أهل نجران من جزيرة العرب » يريد النصارى (١٣٠/٩) .

(فاتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) [1] فانظر إلى هذه المناسبة العجيبة ، والافتتاح ، وبراعة الاستهلال ، حيث تضمنت الآية المفتتح بها ما فى أكثر السورة من أحكام : من نكاح النساء ومحرماته ، والمواريث المتعلقة بالأرحام ، وأن ابتداء هذا الأمر بخلق آدم ، ثم خلق زوجته منه ، ثم بث منهما رجالا كثيراً ونساء فى غاية الكثرة .

أما المائدة فسورة العقود ، تضمنت بيان تمام الشرائع ، ومكملات الدين ، والوفاء بعهود الرسل ، وما أخذ على الأمة ، ونهاية الدين ، فهى سورة التكميل ، لأن فيها تحريم الصيد على المحرم ، الذى هو من تمام الإحرام . وتحريم الخمر ، الذى هو من تمام حفظ العقل والدين . وعقوبة المعتدين من السراق والمحاربين ، الذى هو من تمام حفظ الدماء والأموال وإحلال الطيبات ، الذى هو من تمام عبادة الله ، ولهذا ذكر فيها ما يختص بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، والتيمم ، والحكم بالقرآن على كل ذى دين . ولهذا كثر فيها لفظ الإكمال والإتمام [1] . وذكر فيها : أن من ارتد عوض الله بخير منه ، ولا يزال هذا الدين كاملا ، ولهذا ورد أنها آخر ما نزل [2] لما فيها من إرشادات الختم والتمام . وهذا الترتيب بين هذه السور الأربع المدنيات من أحسن الترتيب : انتهى .

وقال بعضهم : افتتحت البقرة بقوله : (ألم ذلك الكتاب لاريب فيه [2] فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله [فى الفاتحة] : (إهدنا الصراط المستقيم) . فإنهم لما سألوا [الله] الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم : ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه ، كما أخرج ابن جرير وغيره من حديث على

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وأمثالها .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك عن عائشة : ٢١١/٢ وقال صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه والامام أحمد فى المسند عن معاوية بن صالح عن عائشة : ١٨٨/٦

مرفوعا : « الصراط المستقيم كتاب الله »[١] . وأخرجه الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود موقوفا [٢] .

وهذا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط البقرة بالفاتحة .

وقال الخويى [٣] : أوائل هذه السورة مناسبة لأواخر سورة الفاتحة ، لأن الله تعالى لما ذكر أن الحامدين طلبوا الهدى ، قال : قد أعطيتكم ماطلبتم : هذا الكتاب هدى لكم فاتبعوه ، وقد اهتديتم إلى الصراط المستقيم المطلوب المسئول .

ثم إنه ذكر فى أوائل هذه السورة الطوائف الثلاث الذين ذكرهم فى الفاتحة : فذكر الذين على هدى من ربهم ، وهم المنعم عليهم . والذين اشتروا الضلالة بالهدى ، وهم الضالون : والذين باءوا بغضب من الله ، وهم المغضوب عليهم[٤] . انتهى .

أقول : قد ظهر لى بحمد الله وجوهاً من هذه المناسبات :

أحدها : أن القاعدة التى استقر بها القرآن : أن كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها ، وشرح له ، وإطناب لإيجازه . وقد استقر معى ذلك فى غالب سور القرآن ، طويلها وقصيرها . وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل جميع مجملات الفاتحة .

فقوله : (الحمد لله) . تفصيله : ماوقع فيها من الأمر بالذكر فى عدة آيات ومن الدعاء فى قوله : (أجيب دعوة الداع إذا دعان) « ١٨٦ » الآية . وفى قوله : (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا

---

(١) أخرجه ابن جرير عن على من حديث حمزة الريات . جامع البيان : ١٧٣/١
(٢) المستدرك : ٨٣/٤
(٣) هو أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر أبو العباس . توفى بدمشق عام ٦٢٧ انظر عيون الانباء : ١٧١/٢ ، شذرات الذهب : ٢٥/٣ .
(٤) ذكر السيوطى : أن للخويى تفسيرا نقل عنه فى الاتقان (٧/٢ ، ١٢ و ٢٩/٣ و ١٤٤/٤) ولم نعثر عليه ، ولعل هذا النقل منه .

وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الـكافرين) « ٢٨٦ » . وبالشـكر فى قوله : (فاذ كرونى أذ كركم واشـكروا لى ولا تـكفرون) « ١٥٢ » .

وقوله : (رب العالمين) تفصيله قوله : (اعبدوا ربـكم الذى خلقـكم والذين من قبلـكم لعلـكم تتقون . الذى جعل لـكم الأرض فراشاً والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخـــرج به من الثمرات رزقا لـكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) « ٢١ ، ٢٢ » . وقوله : (هو الذى خلق لـكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بـكل شيء عليم) « ٢٩ » . ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذى هو مبدأ البشر [١] ، وهو أشرف الأنواع من العالمين ، وذلك شرح لإجمال (رب العالمين).

وقوله : (الرحمن الرحيم) . قد أومأ إليه بقوله فى قصة آدم : (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) « ٥٤ » . وفى قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصة [بقوله : (وارزق أهله من الثمرات من آمن) « ١٢٦ »] . فقال : (ومن كفر فأمتعه قليلا) « ١٢٦ » .

وذلك لـكونه رحمانا . وما وقع فى قصة بنى إسرائيل : (ثم عفونا عنكم) « ٥٢ » . إلى أن أعاد الآية بجملتها فى قوله : (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) « ١٦٣ » . وذكر آية الدين [٢] إرشادا للطالبين من العباد ، ورحمة بهم . ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر وما لا طاقة لهم به ، وختم بقوله : (واعف عنـا واغفر لنا وارحمنا) « ٢٨٦ » . وذلك شرح قوله : (الرحمن الرحيم) .

---

(١) وذلك فى قوله : (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة) الى قوله : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه — « ٢٠ — ٢٧ » .

(٢) هى قوله : (ياأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه — (٢٨٢) الآيـــة .

وقوله : (مالك يوم الدين) . تفصيله : ما وقع من ذكر يوم القيامة فى عدة مواضع ، ومنها قوله : (إن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله « ٢٨٤ » . والدين [فى الفاتحة] : الحساب [فى البقرة] .

وقوله : (إياك نعبد) مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية ، وقد فصلت فى البقرة أبلغ تفصيل ، فذكر فيها : الطهارة ، والحيض ، والصلاة ، والاستقبال ، وطهارة المكان ، والجماعة ، وصلاة الخوف ، وصلاة الجمع ، والعيد ، والزكاة بأنواعها ، كالنبات ، والمعادن ، والاعتكاف ، والصوم وأنواع الصدقات ، والبر ، والحج ، والعمرة ، والبيع ، والإجارة ، والميراث والوصية ، والوديعة ، والنكاح ، والصداق ، والطلاق ، والخلع ، والرجعة والإيلاء ، والعدة ، والرضاع ، والنفقات ، والقصاص ، والديات ، وقتال البغاة والردة ، والأشربة ، والجهاد ، والأطعمة والذبائح ، والأيمان ، والنذور ، والقضاء ، والشهادات ، والعتق .

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة فى هذه السورة .

وقوله : (وإياك نستعين) . شامل لعلم الأخلاق . وقد ذكر منها فى هذه السورة الجم الغفير ، من التوبة ، والصبر ، والشكر ، والرضى ، والتفويض ، والذكر ، والمراقبة ، والخوف ، وإلانة القول .

وقوله : (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخره . تفصيله : ما وقع فى السورة من ذكر طريق الأنبياء ، ومن حاد عنهم من النصارى ، ولهذا ذكر فى الكعبة أنها قبلة إبراهيم ، فهى من صراط الذين أنعم عليهم ، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معا ، ولذلك قال فى قصتها : (يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) « ١٤٢ » . تنبيها على أنها الصراط الذى سألوا الهداية إليه .

ثم ذكر : (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) « ١٤٥ » . وهم المغضوب عليهم والضالون الذين حادوا عن طريقهم . ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم . ثم قال : (والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) « ٢١٣ » . فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخر السورة .

وأيضا قوله أول السورة : (هدى للمتقين) « ٢ » إلى آخره فى وصف الكتاب ، إخبار بأن الصراط الذى سألوا الهداية إليه هو : ما تضمنه الكتاب ، وإنما يكون هداية لمن اتصف بما ذكر [من صفات المتقين] . ثم ذكر أحوال الكفرة ، ثم أحوال المنافقين ، وهم من اليهود ، وذلك تفصيل لمن حاد عن الصراط المستقيم ، ولم يهتد بالكتاب [1] .

وكذلك قوله هنا : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) « ١٣٦ » .الآية . فيه تفصيل النبيين المنعم عليهم . وقال فى آخرها : (لا نفرق بين أحد منهم) « ١٣٦ » . تعريفا بالمغضوب عليهم والضالين الذين فرقوا بين الأنبياء . ولذلك عقبها بقوله : (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) «١٣٧» . أى : إلى الصراط المستقيم ، صراط المنعم عليهم كما اهتديتم .

فهذا ماظهر لى ، والله أعلم بأسرار كتابه .

الوجه الثانى : أن الحديث والإجماع على تفسير المغضوب عليهم باليهود ،

---

(١) هذا تفصيل للصراط المستقيم عن طريق التبصير بأعداء الصراط المستقيم ، والتحذير منهم على وجه التفصيل . وسيأتى تفصيل للصراط المستقيم فى آل عمران عن طريق التبصير بالعوائق النفسية التى تحول دون الانسان وسلوك الصراط المستقيم باعتبار النفس عدوا للانسان . وبهذا تظهر عظمة الأسلوب القرآنى فى الاجمال والتفصيل ، وفى استيعابه كل شىء .

والضالين بالنصارى [1] ، وقد ذكروا فى سورة الفاتحة على حسب ترتيبهم فى الزمان ، فعقب بسورة البقرة ، وجميع ما فيها [من] خطاب أهل الكتاب لليهود خاصة ، وما وقع فيها من ذكر النصارى لم يقع بذكر الخطاب [2] .

ثم [عقبت البقرة] بسورة آل عمران ، وأكثر ما فيها من خطاب أهل الكتاب للنصارى ، فإن ثمانين آية من أولها نازلة فى وفد نصارى نجران ، كما ورد فى سبب نزولها [3] وختمت بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله) « ١٩٩ » . وهى فى النجاشى وأصحابه من مؤمنى النصارى ، كما ورد به الحديث [4] . وهذا وجه بديع فى ترتيب السورتين ، كأنه لما ذكر فى الفاتحة الفريقين ، قص فى كل سورة مما بعدها حال كل فريق على الترتيب الواقع فيها ، ولهذا كان صدر سورة النساء فى ذكر اليهود ، وآخرها فى ذكر النصارى [5] .

الوجه الثالث : أن سورة البقرة أجمع سور القرآن للأحكام والأمثال ، ولهذا سميت فى أثر : فسطاط القرآن [6] . الذى هو : المدينة الجامعة ، فناسب تقديمها على جميع سوره .

الوجه الرابع : أنها أطول سورة فى القرآن ، وقد افتتح بالسبع الطوال [7] ، فناسب البداءة بأطولها .

---

(١) اخرج احمد فى مسنده : ٣٧٨/٤ والترمذى : ٢٨٦/٨ — ٢٨٨ بتحفة الأحوذى تفسير النبى صلى الله عليه وسلم للمغضوب عليهم والضالين باليهود والنصارى عن عدى بن حاتم . وانظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ٤٦/١ .

(٢) وانما جاء على أسلوب الخبر ، كقوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصبئين والنصارى من آمن بالله واليو الآخر — (٦٢) . وقوله : (وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى — (١١١) الآية .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم : (٤٠/٢) لمعرفة سبب النزول ، وقصة وفد نجران فى (سيرة ابن هشام : ٥٧٣/١) وما بعدها .

(٤) فى اسلام النجاشى . انظر البخارى فى الجنائز : ١٠٨/٢ ومسلم فى الجنائز ٥٤/٣ ، ٥٥ . وانظر تفسير الطبرى : ٤٩٦/٧ .

(٥) وذلك قوله فى النساء : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه — (٤٦) وما بعدها . وآخرها قوله : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله — (١٧١) الآية .

(٦) اخرجه الدارمى : ٤٤٦/٢ عن خالد بن معدان .

(٧) السبع الطوال هى : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والاعراف ويونس ، وسيأتى سبب وضع الانفال والتوبة بينها .

الوجه الخامس : أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، فناسب البداءة بها ، فإن للأولية نوعا من الأولوية .

الوجه السادس : أن سورة الفاتحة كما ختمت بالدعاء للمؤمنين بألا يسلك بهم طريق المغضوب عليهم ولا الضالين إجمالا ، ختمت سورة البقرة بالدعاء بألا يسلك بهم طريقهم فى المؤاخذة بالخطأ والنسيان ، وحمل الإصر ، وما لا طاقة لهم به تفصيلا ، وتضمن آخرها أيضا الإشارة إلى طريق المغضوب عليهم والضالين بقوله : (لا نفرق بين أحد منهم) «٢٨٥» فتآخت السورتان وتشابهتا فى المقطع ، وذلك من وجوه المناسبة فى التتالى والتناسق . وقد ورد فى الحديث التأمين فى آخر سورة البقرة كما هو مشروع فى آخر الفاتحة [١] ، فهذه ستة وجوه ظهرت لى ، ولله الحمد والمنة .

« سورة آل عمران »

قد تقدم ما يؤخذ منه مناسبة وضعها .

قال الإمام : لما كانت هذه السورة قرينة سورة البقرة ، وكالمكملة لها ، افتتحت بتقرير ما افتتحت به تلك ، وصرح فى منطوق مطلعها بما طوى فى مفهوم تلك [٢] .

وأقول : قد ظهر لى بحمد الله وجوه من المناسبات .

أحدها : مراعاة القاعدة التى قررتها ، من شرح كل سورة لإجمال ما فى السورة قبلها ، وذلك هنا فى عدة مواضع .

---

(١) كان معاذ بن جبل يقول : (آمين) آخر البقرة كما أخرج منه ابن جرير . رواه وكيع عن سفيان ، عن أبى اسحاق ، عن رجل ، عن معاذ . (تفسير ابن كثير ٥٠٩/١) .

(٢) مفهوم مطلع البقرة : الدعوة الى الايمان بالله فى قوله : (الذين يؤمنون بالغيب) . وهو مصرح به فى مطلع هذه بقوله (الله لا اله الا هو الحى القيوم (٢) .

منها : ما أشار إليه الإمام ، فإن أول البقرة افتتح بوصف الكتاب بأنه لاريب فيه . وقال فى آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) «٣» : وذلك بسط وإطناب ، لنفى الريب عنه .

ومنها : أنه ذكر فى البقرة إنزال الكتاب مجملا ، وقسمه هنا إلى آيات محكمات ، ومتشابهات لايعلم تأويلها إلا الله [1] .

ومنها : أنه قال فى البقرة : (وما أنزل من قبلك) «٣» ، وقال هنا : (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) « ٣ ، ٤ » مفصلا . وصرح بذكر الإنجيل هنا ، لأن السورة خطاب للنصارى ، ولم يقع التصريح به فى سورة البقرة بطولها ، وإنما صرح فيها بذكر التوراة خاصة ، لأنها خطاب لليهود .

ومنها : أن ذكر القتال وقع فى سورة البقرة مجملا بقوله : (وقاتلوا فى سبيل الله) «١٩٠ ، ٢٤٤» [وقوله] : (كتب عليكم القتال) «٢١٦» . وفصلت هنا قصة أُحُد بكمالها [2] .

ومنها : أنه أوجز فى البقرة ذكر المقتولين فى سبيل الله بقوله : (أحياء ولكن لا تشعرون) وزاد هنا : (عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضلة ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم) «١٧٠» الآيتين . وذلك إطناب عظيم .

ومنها : أنه قال فى البقرة : (والله يؤتى ملكه من يشاء) «٢٤٧» . وقال هنا : (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير) «٢٦» . فزاد إطنابا وتفصيلا .

---

(١) وذلك قوله : (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب واخر متشابهات ـــ (٧) الآية

(٢) وذلك فى قوله : (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه ــ (١٥٢) الى ولئن متم أو قتلتم لالى الله تحشرون ـــ (١٥٨) .

ومنها : أنه حذر من الربا فى البقرة ، ولم يزد على لفظ الربا إيجازاً [1].
وزاد هنا [قوله] . (أضعافاً مضاعفة) «١٣٠» . وذلك بيان وبسط .

ومنها : أنه قال فى البقرة : (وأتموا الحج) «١٩٦» وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالا . وفصله هنا بقوله : (ولله على الناس حج البيت) «٩٧» وزاد : بيان شرط الوجوب بقوله : (من استطاع إليه سبيلا) «٩٧» . ثم زاد : تكفير من جحد وجوبه بقوله : (ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين) «٩٧» .

ومنها : أنه قال فى البقرة فى أهل الكتاب : (ثم توليتم إلا قليلا منكم) «٨٣» . فأجمل القليل . وفصله هنا بقوله : (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) «١١٣» . الآيتين .

ومنها : أنه قال فى البقرة : (قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) «١٩٣» . فدل بها على تفضيل هذه الأمة على اليهود تعريضا لا تصريحا وكذلك قوله : (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) «١٤٣» . فى تفضيل هذه الأمة على سائر الأمم بلفظ فيه يسير إبهام ، وأتى فى هذه بصريح البيان فقال : (كنتم خير أمة أخرجت للناس) «١١٠» . فقوله : (كنتم) . أصرح فى قدم ذلك من (جعلناكم) . ثم زاد وجه الخيرية بقوله : (تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) «١١٠».[2]

---

(١) وذلك فى قوله : (الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس — (٢٧٥) ، (يمحق الله الربا ويربى الصدقات — (٢٧٦) .

(٢) ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران : أن الصراط المستقيم ذكر مجملا فى الفاتحة ، ثم عينه فى أول البقرة بقوله : (ذلك الكتاب) . ثم عين طريق السير عليه فى آل عمران بقوله : (ومن يعتصم بالله فقد هدى الى صراط مستقيم — (١٠١) .

ثم فصل وسيلة الاعتصام بالله ، بالاعتصام بجبل الله ، فلما كان الصراط المستقيم دقيقا جدا ، ويحتاج السائر عليه الى غاية اليقظة ، حث الله على الاعتصام بكتاب الله ، وسماه حبلا ليناسب الصراط الدقيق ، حيث يحمى السائر عليه من الزلل . وحذر من الفرقة ، ودعا الى التذكير الدائم عن طريق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى يعتبر بمثابة التعليم الدائم ، وتصحيح الأخطاء الناشئة عن الهوى . وانظر لزيادة البيان (نظم الدرر للبقاعى الجزء الأول ورقة : ١٧٧ ا ، ب) .

ومنها : أنه قال فى البقرة : (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام) « ١٨٨ » . الآية . وبسط الوعيد هنا بقوله : (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة) « ٧٧ » . الآية ، وصدره بقوله : (وإن من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل) « ٧٥ » .

فهذه عدة مواضع وقعت فى البقرة مجملة ، وفى آل عمران تفصيلها .

الوجه الثانى : أن بين هذه السورة وسورة البقرة اتحادا ، وتلاحما متأكدا ، لما تقدم من أن البقرة بمنزلة إزالة الشبهة ، ولهذا تكرر هنا ما يتعلق بالمقصود الذى هو بيان حقيقة الكتاب : من إنزال الكتاب ، وتصديقه للكتب قبله ، والهدى إلى الصراط المستقيم .[١] وتكررت هنا آية : (قولوا آمنا بالله وما أنزل) « ١٣٦ » . بكمالها ، ولذلك أيضا ذكر فى هذه ما هو تال لما ذكر فى تلك ، أو لازم فى تلك ، أو لازم له .

فذكر هناك خلق الناس ، وذكر هنا تصويرهم فى الأرحام[٢] . وذكر هناك مبدأ خلق آدم ، وذكر هنا مبدأ خلق أولاده[٣] . وألطف من ذلك : أنه افتتح البقرة بقصة آدم حيث خلقه من غير أب ولا أم ، وذكر فى هذه نظيره فى الخلق من غير أب ، وهو عيسى عليه السلام[٤] ، ولذلك ضرب له المثل

---

(١) وذلك قوله فى أول آل عمران : (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وانزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وانزل الفرقان — (٣-٤) .

(٢) وذلك قوله : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا اله الا هو — (٦) .

(٣) خلق آدم فى البقرة فى قوله : (واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة — (٣٠) وخلق أولاده فى آل عمران فى قوله : (هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء — (٦) .

(٤) وذلك قوله : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون — (٥٩) .

بآدم ، واختصت البقرة بآدم ، لأنها أول السور ، وآدم أول فى الوجود وسابق، ولأنها الأصل ، وهذه كالفرع والتتمة لها ، فمختصة بالإعراب [والبيان] .

ولأنها خطاب لليهود الذين قالوا فى مريم ما قالوا ، وأنكروا وجود ولد بلا أب ، ففوتحوا بقصة آدم ، لتثبت فى أذهانهم ، فلا تأتى قصة عيسى إلا وقد ذكر عندهم ما يشبهها من جنسها .

ولأن قصة عيسى قيست على قصة آدم فى قوله : (كمثل آدم) « ٥٩ » الآية ، والمقيس عليه لا بد وأن يكون معلوما ، لتتم الحجة بالقياس ، فكانت قصة آدم والسورة التى هى فيها جديرة بالتقدم .

ومن وجوه تلازم السورتين : أنه قال فى البقرة فى صفة النار : (أعدت للكافرين)«٢٤» ، ولم يقل فى الجنة : أعدت للمتقين ، مع افتتاحها بذكر المتقين والكافرين معاً[1] ، وقال ذلك فى آخر آل عمران فى قوله : (جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) « ١٣٣» . فكأن السورتين بمنزلة سورة واحدة .

وبذلك يعرف أن تقديم آل عمران على النساء أنسب من تقديم النساء عليها.

وأمر آخر استقرأته ، وهو : أنه إذا وردت سورتان بينهما تلازم واتحاد ، فإن السورة الثانية تكون خاتمتها مناسبة لفاتحة الأولى للدلالة على الاتحاد . وفى السورة المستقلة عما بعدها يكون آخر السورة نفسها مناسب لأولها . وآخر آل عمران مناسب لأول البقرة ، فإنها افتتحت بذكر المتقين ، وأنهم المفلحون ، وختمت آل عمران بقوله : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) « ٢٠٠ » .

---

(١) وذلك قوله فى البقرة : (أولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون . ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون — (٥ ، ٦) .

وافتتحت البقرة بقوله : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)« ٤ » وختمت آل عمران بقوله : (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم) « ١٩٩ » . فلله الحمد على ما ألهم .

وقد ورد أنه لمانزلت : (من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً) «٢:٢٤٥» . قال اليهود : يامحمد ، افتقر ربك ، فسأل القرض عباده ، فنزل قوله : (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء) « ٣ : ١٨١ » [1] . فذلك أيضا من تلازم السورتين .

ووقع فى البقرة حكاية عن إبراهيم : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك) « ١٢٩ » الآية . ونزل فى هـذه : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم) « ١٦٤ » . وذلك أيضا من تلازم السورتين .

« سـورة النسـاء »

تقدمت وجوه مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة .

فمنها : أنه أجمل فى البقرة قوله : (اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) « ٢١ » . وزاد هنا : (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء) «١» .

---

(١) اخرجه ابن جرير فى التفسير : ٤٤٢/٧ . وعزاه الى ابن أبى حاتم وابن مردويه.

وانظر لما كانت آية التقوى فى سورة البقرة غاية ؛ جعلها فى أول هذه السورة التالية لها مبدأ .[1]

ومنها : أنه أجمل فى سورة البقرة : (أسكن أنت وزوجك الجنة) «٣٥». وبين هنا أن زوجته خلقت منه فى قوله ، (وخلق منها زوجها) «١» .

ومنها : أنه أجمل فى البقرة آية اليتامى ، وآية الوصية ، والميراث ، والوارث ، فى قوله : (وعلى الوارث مثل ذلك) «٢٣٣» . وفصل ذلك فى هـذه السورة أبلغ تفصيل .[2]

وفصل هنا من الأنكحة ما أجمله هناك ، فإنه قال فى البقرة : (ولأمة مؤمنة خير من مشركة) «٢٢١» فذكر نكاح الأمة إجمالا ، وفصل هنا شروطه[3] .

ومنها : أنه ذكر الصداق فى البقرة مجملا بقوله : (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) «٢٢٩» . وشرحه هنا مفصلا[4] .

ومنها : أنه ذكر هناك الخلع ، وذكر هنا أسبابه ودواعيه ، من النشوز وما يترتب عليه ، وبعث الحكمين[5] .

---

(١) آية التقوى فى البقرة هى : (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ــ (٢) . وهى غاية ، لأن الهداية بالكتاب وبآياته لا تكون الا للمتقين ، فالتقوى غاية الهداية . أما فى سورة النساء فقد بدأ الله الأمر بها فى قوله : (اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ــ (١) الآية . وبين وسائل تحقيقها فى نفس الآية .

(٢) وذلك فى الآيات (٧ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٣ ، ١٧٦) من سورة النساء .

(٣) وذلك فى قوله : (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ــ (٢٥) الآية .

(٤) وذلك فى قوله تعالى : (وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا) الى (وأخذن منكم ميثاقا غليظا (٢٠ ، ٢١) .

(٥) قال عن الخلع فى البقرة : (فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به ــ (٢٢٩) الآية . وهنا قال : (الرجال قوامون على النساء) الى (وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها (٣٤ / ٣٥) . وهذا فى أسباب الخلع .

ومنها : أنه فصل هنا من أحكام المجاهدين ، وتفضيلهم درجات ، والهجرة ، ما وقع هناك مجملا ، أومرموزا[1] .

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : تفسير : (الذين أنعمت عليهم) . بقوله : (من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) « ٦٩ » .

وأما وجه اعتلاقها بآل عمران فمن وجوه :

منها : أن آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى ، وافتتحت هذه السورة به[2].وهذا من أكبر وجوه المناسبات فى ترتيب السور ، وهو نوع من البديع يسمى : تشابه الأطراف .

ومنها أن سورة آل عمران ذكر فيها قصة أحد مستوفاة ، وذكر فى هذه السورة ذيلها ، وهو قوله : (فما لكم فى المنافقين فئتين) « ٨٨ » . فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين من غزوة أحد ، كما فى الحديث[3].

ومنها : أن فى آل عمران ذكرت الغزوة التى بعد أحد بقوله : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح) «١٧٢»[4] . وأشير إليها

---

(١) قال هنا : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله) الى (وكان الله غفورا رحيما ـ (٩٥ ــ ٩٩) . وقال هناك : (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتا بل أحياء (١٥٤) الآية . (كتب عليكم القتال وهو كره لكم (٢١٦) الآية . (ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله (٢١٨) الآية .

(٢) ختمت آل عمران بقوله : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) . وافتتحت النساء بقوله : (واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام) الآية

(٣) أخرجه البخارى فى التفسير : ٥٩/٦ عن زيد بن ثابت . ومسلم فى المنافقين : ١٢٨/٨ . وأحمد فى المسند : ١٨٤/٥ . وفيه : أن الصحابة اختلفوا فيمن رجع عن غزوة أحد ، فقال فريق : بقتلهم . وقال فريق : لا . فنزلت .

(٤) هو يوم حمراء الاسد ، كان عقب أحد ، وكان الكفار قد ندموا أن لم يدخلوا المدينة ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فندب المسلمين للخروج على ما بهم من جراح ، ليريهم أن بهم قوة وجلدا . انظر البخارى : ١٣٠/٥ . والمستدرك : ٢٩٨/٢ وسيرة ابن هشام : ١٠١/٢ .

هنا بقوله : (ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون) «١٠٤» الآية [1].

وبهذين الوجهين عرف أن تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها فى مصحف ابن مسعود ، لأن المذكور هنا ذيل ما فى آل عمران ، ولاحقه وتابعه ، فكانت بالتأخير أنسب .

ومنها : أنه ذكر فى آل عمران قصة خلق عيسى بلا أب ، وأقيمت له الحجة بآدم ، وفى ذلك تبرئة لأمه ، خلافا لما زعم اليهود ، وتقرير لعبوديته ، خلافا لما ادعته النصارى ، وذكر فى هذه السورة الرد على الفريقين معاً : فرد على اليهود بقوله : (وقولهم على مريم بهتاناً عظيما) «١٥٦» . وعلى النصارى بقوله : (لا تغلو فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ورح منه) إلى قوله : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله) « ١٩١ — ٢٧١ » .

ومنها : أنه لما ذكر فى آل عمران : (إنى متوفيك ورافعك إلى) « ٥٥ » . رد هنا على من زعم قتله بقوله : (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً . بل رفعه الله إليه) «١٥٧ — ١٥٨» .

ومنها : أنه لما قال فى آل عمران فى المتشابه [2] : (والراسخون فى العلم

---

(١) ومن أسرار الترتيب أنه تعالى زاد فى سورة محمد تفصيل سبب النهى عن الوهن فى قوله : (ولا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين (٣٥) . نهناك واقعة خاصة ، وهذا هام فى قانون الحرب .

(٢) المتشابه فى القرآن يأتى على معنيين : أولهما المتماثل فى اللفظ ، وهو غير مراد هنا ، والثانى ما جاء مؤيدا للواجبات بأصله ، رادا بوصفه ، فتشابه على السامع علمه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه (الأمد الأقصى ورقة ١٢٠ أ) .

يقولون آمنا به كل من عند ربنا) « ٧ » . قال هنا : (لكن الراسخون فى العلم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك) « ١٦٢ » الآية .

ومنها أنه لما قال فى آل عمران : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا) « ١٤ » الآية . فصل هذه الأشياء فى السورة التى بعدها على نسق ما وقعت فى الآية ، ليعلم ما أحل الله من ذلك فيقتصر عليه ، وما حرم فلا يتعدى إليه ، لميل النفس إليه .

فقد جاء فى هذه السورة أحكام النساء ، ومباحاتها[1] ، للابتداء بها فى الآية السابقة فى آل عمران ، ولم يحتج إلى تفصيل البنين ، لأن تحريم البنين لازم ، لا يترك منه شىء كما يترك من النساء ، فليس فيهم مباح فيحتاج إلى بيانه ، ومع ذلك أشير إليهم فى قوله : (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) « ٩ »

ثم فصل فى سورة المائدة أحكام السراق ، وقطاع الطريق [2] ، لتعلقهم بالذهب والفضة الواقعين فى الآية بعد النساء والبنين . ووقع فى سورة النساء إشارة إلى ذلك فى قسمة المواريث .

ثم فصل فى سورة الأنعام أمر الحيوان والحرث ، وهو بقية المذكور فى آية آل عمران . فانظر إلى هذه اللطيفة التى من الله بإلهامها !

ثم ظهر لى أن سورة النساء فصل فيها ذكر البنين أيضا ، لأنه لما أخبر بحب الناس لهم ، وكان من ذلك إيثارهم على البنات فى الميراث ، وتخصيصهم به دونهن ،

(١) وذلك من قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء) الى قوله : (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما — (٢٢ — ٢٧) .

(٢) وذلك فى قوله : (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا (٣٣) الآية .

تولى قسمة المواريث بنفسه، فقال : (يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) «١١» . وقال : (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب) «٧» . فرد على ما كانوا يصنعون من تخصيص البنين بالميراث ، لحبهم لهم ، فكان ذلك تفصيلا لما يحل ويحرم من إيثار البنين ، اللازم عن الحب ، وفى ضمن ذلك تفصيل لما يحل للذكر أخذه من الذهب والفضة ، وما يحرم .

ومن الوجوه المناسبة لتقدم آل عمران على النساء : اشتراكها مع البقرة فى الافتتاح بإنزال الكتاب ، وفى الافتتاح : (الم) وسائر السور المفتتحة بالحروف المقطعة كلها مقترنة ، كيونس وتواليها ، ومريم وطه ، والطواسين ، و (الم) العنكبوت وتواليها ، والحواميم ، وفى ذلك أول دليل على اعتبار المناسبة فى الترتيب بأوائل السور .

ولم يفرق بين السورتين من ذلك بما ليس مبدوءا به سوى بين الأعراف ويونس اجتهادا لا توقيفا ، والفصل بالزمر بين (حم) غافر و (ص) وسيأتى .

ومن الوجوه فى ذلك أيضا : اشتراكهما فى التسمية بالزهراوين فى حديث : « اقرءوا الزهراوين : البقرة وآل عمران » . فكان افتتاح القرآن بهما نظير اختتامه بسورتى الفلق والناس ، المشتركتين فى التسمية بالمعوذتين .

« سورة المائدة »

وقد تقدم وجه فى مناسبتها .

وأقول : هذه السورة أيضا شارحة لبقية مجملات سورة البقرة ، فإن آية الأطعمة والذبائح فيها أبسط منها فى البقرة [١] . وكذا ما أخرجه الكفار تبعا

(١) قال تعالى هنا : (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) الى (وطعام الذين اوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم — (٣ — ٥) . أما فى البقرة فلم يكن هذا التفصيل ، اذ قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم). ثم قال : (انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه — (١٧٢ — ١٧٣) .

لأنهم فى البقرة موجز [١] وفى هذه السورة مطنب أبلغ إطناب فى قوله : (ماجعل الله من بحيرة ولا سائبة) « ١٠٣، ١٠٤ » .

وفى البقرة ذكر القصاص فى القتلى [٢] . وهنا ذكر أول من سن القتل ، والسبب الذى لأجله وقع ، وقال : (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا «٣٢» . وذلك أبسط من قوله [فى البقرة] : (ولكم فى القصاص حياة) «١٧٩»

وفى البقرة : (وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية) « ٥٨ » . وذكر فى قصتها هنا : (فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه) «٥٤» .

وفى البقرة قصة الأيمان موجزة ، وزاد هنا بسطا بذكر الكفارة [٣] .

وفى البقرة قال فى الخمر والميسر : (فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما) «٢١٩» . وزاد فى هذه السورة ذمها ، وصرح بتحريمها [٤] .

وفيها من الاعتلاق بسورة الفاتحة : بيان المغضوب عليهم والضالين فى

---

(١) فى البقرة : (يا أيها الناس كلوا من طيبات مارزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان — (١٦٨) .

(٢) من دلائل الترتيب أنه قال : (كتب عليكم القصاص فى القتلى) فى البقرة (١٧٨). ثم زاده بيانا فى نفس السورة فقال : (ولكم فى القصاص حياة (١٧٩) . ثم قال: (والحرمات قصاص (١٩٤) . ثم ذكر قتل الخطأ والنسيان فى النساء فقال : (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة (٩٢) . وزاد تفصيل القصاص فيما ساقه المؤلف فى الآية (٣٢) المائدة . ثم فصل أحكام القصاص فى قوله : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص . (٤٥ المائدة) .
وهذا تدرج بديع يدل على احكام الترتيب والتلاحم .

(٣) قال هنا : (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين — (٨٩) .
وقال فى البقرة : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم (٢٢٥) .

(٤) فى هذه السورة قال تعالى : (انما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله ، ٩٠ ، ٩١) الآية .

قوله : (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه) «٦٠» . الآية . وقوله : (قد ضلوا من قبل وأضلوا عن سواء السبيل) «٧٧».

وأما اعتلاقها بسورة النساء، فقد ظهر لى فيه وجه بديع جدا . وذلك أن سورة النساء اشتملت على عدة عقود صريحا وضمنا، فالصريح : عقود الأنكحة، وعقد الصداق ، وعقد الحلف ، فى قوله : (والذين عقدت أيمانكم فآتوهم نصيبهم) «٣٣» . وعقد الأيمان فى هذه الآية . وبعد ذلك عقد المعاهدة والأمان فى قوله : (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) « ٩٠ » . وقوله : (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية) «٩٢» .

والضمنى : عقد الوصية ، والوديعة ، والوكالة ، والعارية، والإجارة ، وغير ذلك من الداخل فى عموم قوله : (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) «٥٨» . فناسب أن يعقب بسورة مفتتحة بالأمر بالوفاء بالعقود . فكأنه قيل [فى المائدة] : (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) «١» التى فرغ من ذكرها فى السورة التى تمت . فكان ذلك غاية فى التلاحم والتناسب والارتباط.

ووجه آخر فى تقديم سورة النساء ، وتأخير سورة المائدة ، وهو: أن تلك أولها : (يا أيها الناس) « ١ » وفيها الخطاب بذلك فى مواضع ، وهو أشبه بخطاب المكى ، وتقديم العام [1] وشبه المكى أنسب .

ثم إن هاتين السورتين [النساء والمائدة] فى التقديم والاتحاد نظير البقرة وآل عمران ، فتلكما فى تقرير الأصول ، من الوحدانية ، والكتاب ، والنبوة. وهاتان فى تقرير الفروع الحكمية .

---

(١) يريد بالعام : الخطاب بيا أيها الناس ، فهو أعم من : (يا أيها الذين آمنوا) . أو (يا أهل الكتاب) .

وقد ختمت المائدة بصفة القدرة ، كما افتتحت النساء بذلك [١].

وافتتحت النساء ببدء الخلق ، وختمت المائدة بالمنتهى من البعث والجزاء [٢] . فكأنهما سورة واحدة ، اشتملت على الأحكام من المبتدأ إلى المنتهى .

ولما وقع فى سورة النساء : (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس) « ١٠٥ » الآيات . فكانت نازلة فى قصة سارق سرق درعا [٣] ، فصل فى سورة المائدة أحكام السراق والخائنين .

ولما ذكر فى سورة النساء أنه أنزل إليك الكتاب لتحكم بين الناس ، ذكر فى سورة المائدة آيات فى الحكم بما أنزل الله حتى بين الكفار ، وكرر قوله : (ومن لم يحكم بما أنزل الله) « ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ » .

فانظر إلى هذه السور الأربع المدنيات ، وحسن ترتيبها ، وتلاحمها ، وتناسقها ، وتلازمها .

وقد افتتحت بالبقرة التى هى أول ما نزل بالمدينة ، وختمت بالمائدة التى هى آخر ما نزل بها ، كما فى حديث الترمذى [٤] .

---

(١) ختام المائدة قوله تعالى : (لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شىء قدير (١٢٠) . وأول النساء : (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة (١) الاية . وهو دليل القدرة .

(٢) بدء الخلق فى أول النساء قوله : (الذى خلقكم من نفس واحدة (١) الاية . والمنتهى فى ختام المائدة قوله : (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم (١١٩) الاية .

(٣) قصة الدرع أخرجها ابن كثير فى التفسير : ٣٥٨/٢ ، ٣٥٩ ، وعزاها الى ابن مردويه ، من طريق عطية العوفى . ورواه الترمذى فى حديث طويل فيه سرقة طعام وسلاح : ٣٩٥/٨ – ٣٩٩ بتحفة الاحوذى . وأخرجه الحاكم فى المستدرك ٣٨٥/٤ – ٣٨٨ . وانظر ارشاد الرحمن فى المتشابه والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول وتجويد القرآن للاجهورى ورقة : ١٣٦ أ ، ب لزيادة التفاصيل .

(٤) أخرج الترمذى عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧ : (آخر سورة نزلت المائدة والفتح . وقال المباركفورى : روى الشيخان عن البراء : آخر نزلت (يستفتونك قل الله يفتيكم) . وآخر سورة نزلت براءة . ورد البيهقى هذا التعارض بأن كل واحد أجاب بما عنده . وقال الباقلانى : ليس فى هذه الاقوال شىء مرفوع الى النبى صلى الله عليه وسلم وكل واحد قال بضرب اجتهاد (تحفة الاحوذى : ٤٣٦/٨ ، ٤٣٧) . وانظر (نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى ص ١٣٥) .

قال بعضهم : مناسبة هذه السورة لآخر المائدة : أنها افتتحت بالحمد ، وتلك ختمت بفصل القضاء ، وهما متلازمتان كما قال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) « ٣٩ : ٧٥ » .

وقد ظهر لى بفضل الله مع ما قدمت الإشارة إليه فى آية (زين للناس) . أنه لما ذكر فى آخر المائدة . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) « ١٢٠ » على سبيل الإجمال ، افتتح هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله .

فبدأ بذكر : أنه خلق السموات والأرض ، وضم إليه أنه جعل الظلمات والنور ، وهو بعض ما تضمنه قوله : (وما فيهن) فى آخر المائدة . وضمن قوله : (الحمد لله) [أول الأنعام] أن له ملك جميع المحامد ، وهو من بسط : (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) [فى آخر المائدة] :

ثم ذكر : أنه خلق النوع الإنسانى ، وقضى له أجلا مسمى ، وجعل له أجلا آخر للبعث ، وأنه منشىء القرون قرنا بعد قرن ، ثم قال : (قل لمن ما فى السموات والأرض) «١٢» . فأثبت له ملك جميع المنظورات . ثم قال : (وله ما سكن فى الليل والنهار «١٣» . فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرفى الزمان . ثم ذكر أنه خلق سائر الحيوان ، من الدواب والطير ، ثم خلق النوم واليقظة ، والموت والحياة ، ثم أكثر فى أثناء السورة من ذكر الخلق والإنشاء لما فيهن ، من النيرين ، والنجوم ، وفلق الإصباح ، وخلق الحب والنوى ، وإنزال الماء ، وإخراج النبات والثمار بأنواعها ، وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات ، والأنعام ، ومنها حمولة وفرش . وكل ذلك تفصيل لملكه ما فيهن : وهـذه مناسبة جليلة .

ثم لما كان المقصود من هذه السورة بيان الخلق والملك، أكثر فيها من ذكر الرب الذى هو بمعنى المالك والخالق والمنشىء، واقتصر فيها على مايتعلق بذلك من بدء الخلق الإنسانى والملكوتى، والملكى والشيطانى، والحيوانى والنباتى، وما تضمنته من الوصايا، فكلها متعلق بالقوام والمعاش الدنيوى، ثم أشار إلى أشراط الساعة.

فقد جمعت هذه السورة جميع المخلوقات بأسرها، وما يتعلق بها، وما يرجع إليها، فظهر بذلك مناسبة افتتاح السور المكية بها [1]، وتقديمها على ماتقدم نزوله منها.

وهى فى جمعها الأصول والعلوم والمصالح الدنيوية نظير سورة البقرة فى جمعها العلوم والمصالح الدينية. وما ذكر فيها من العبادات المحضة، فعلى سبيل الإيجاز والإيماء، كنظير ماوقع فى البقرة من علوم بدء الخلق ونحوه، فإنه على سبيل الاختصار والإشارة.

فإن قلت: فلم لا أفتتح القرآن بهذه السورة، مقدَّمة على سورة البقرة، لأن بدء الخلق مقدَّم على الأحكام والتعبُّدات؟.

قلت: للإشارة إلى أن مصالح الدين والآخرة مقدمة على مصالح المعاش والدنيا، وأن المقصود إنما هو العبادة، فقدم ماهو الأهم فى نظر الشرع [2]، ولأن علم بدء الخلق كالفَضْلَة، وعلوم الأحكام والتكاليف متعين على كل واحد.

---

(١) الانعام مكية وقد نقل السيوطى ذلك عن ابن الضريس فى فضائل القرآن من طريق محمد بن عبد الله الرازى الى ابن عباس (الاتقان ٤٢/١).

(٢) ولهذا جاء فى البقرة : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم (٢١) وليس فى القرآن غيره بلفظه. قال الكرمانى : العبادة فى الاية : التوحد. وهو أول ما يلزم العبد من المعارف. فكان هذا أول خطاب خاطب به العباد فى القرآن، ثم ذكر سائر المعارف، وبنى عليها العبادات فيما بعدها من السور والايات (أسرار التكرار فى القرآن (٢٢).

فلذلك لاينبغى النظر فى علم بدء الخلق وماجرى مجراه من التواريخ إلا بعد النظر فى علم الأحكام وإتقانه .

ثم ظهر لى بحمد الله وجه آخر ، أتقن مماتقدم . وهو . أنه لما ذكر فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولاتعتدوا) « ٨٧ » إلى آخره ، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله افتراء عليه ، وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئا مما أحل الله ، فيشابهوا بذلك الكفار فى صنيعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ، ساق هذه السورة لبيان ماحرمه الكفار فى صنيعهم ، فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ، ثم جادلهم فيه ، وأقام الدلائل على بطلانه ، وعارضهم وناقضهم ، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة [1] فكانت هذه السورة شرحا لما تضمنته المائدة من ذلك على سبيل الإجمال ، وتفصيلا وبسطا ، وإتماما وإطنابا .

وافتتحت بذكر الخلق والملك [2] ، لأن الخالق والمالك هو الذى له التصرف فى ملكه ، ومخلوقاته ، إباحة ومنعا ، وتحريما وتحليلا ، فيجب ألا يتعدى عليه بالتصرف فى ملكه .

وكانت هذه السورة بأسرها متعلقة بالفاتحة من وجه كونها شارحة لإجمال قوله : (رب العالمين) . وللبقرة من حيث شرحها لإجمال قوله : (الذى خلقكم والذين من قبلكم) « ٢١ » . وقوله : (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً) « ٢٩ » . وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله : (والأنعام والحرث) « ١٤ » . وقوله : (كل نفس ذائقة الموت) « ١٨٥ » . الآية .

---

(١) وهذا البيان الكامل فى قوله تعالى : (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيبا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) الى (سيجزيهم وصفهم انه حكيم عليم (١٣٦ — ١٣٩) .

(٢) وذلك قوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والارض) الى (وهو الله فى السموات والارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون (١ ، ٢) .

وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق ، والتقبيح لما حرموه على أزواجهم ، وقتل البنات بالوأد .(١)

وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها .(٢)

وفى افتتاح السور المكية بها وجهان آخران من المناسبة .

الأول : افتتاحها بالحمد .

والثانى : مشابهتها للبقرة ، المفتتح بها السور المدنية ، من حيث أن كلاهما نزل مشيعاً . ففى حديث أحمد : « البقرة سنام القرآن وذروته ، نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا » .(٣) وروى الطبرانى وغيره من طرق : « أن الأنعام شيعها سبعون ألف ملك » . وفى رواية : « خمسمائة ملك .(٤)

ووجه آخر ، وهو : أن كل ربع من القرآن افتتح بسورة أولها الحمد . وهذه للربع الثانى ، والكهف للربع الثالث ، وسبأ وفاطر للربع الرابع .

وجميع هذه الوجوه التى استنبطتها من المناسبات بالنسبة للقرآن كنقطة من بحر .

ولما كانت هذه السورة لبيان بدء الخلق ، ذكر فيها ما وقع عند بدء

---

(١) سبق ما يدل على بدء الخلق ، وما حرموه على ازواجهم ، أما تقبيح قتل البنات بالوأد فجاء عقبه فى قوله تعالى : (قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم وحرموا ما رزقهم الله (١٤٠) .

(٢) الاطعمة ذكرت هنا مفصلة من وله تعالى : (وهو الذى أنشأ جنات معروشات) الى قوله : (ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون (١٤١ ــ ١٤٨) .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند : ٢٦/٥ عن معقل بن يسار . واخرج أوله الترمذى : ١٨١/٨ بتحفة الاحوذى . والدارمى فى فضائل القرآن عن ابن مسعود : ٤٤٧/٢ . ونزول الملائكة معها أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ٣١١/٦ وعزاه للطبرانى .

(٤) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد عن ابن عمر : ١٩/٧ ، ٢٠ وفيه (انزلت جملة واحدة) وفيه (لهمزجل بالتسبيح دالتحميد) . وعزاه للطبرانى وقال : فيه يوسف الصفار ، وهو ضعيف . وقال ابن الجوزى : متروك . (العلل المتناهية من اسمه يوسف) ونقل السيوطى عن ابن الصلاح فى فتاواه رواية تخالف ذلك : أنها لم تنزل جملة ، بل نزلت منها آيات بالمدنية ، قيل : ثلاث ، وقيل : غير ذلك (الاتقان : ١٣٧/١) .

الخلق ، وهو قوله : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) « ٥٤ » . فى الصحيح : « لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ، كتب كتابا عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى » [1]

« سـورة الأعـراف »

أقول : مناسبة وضع هـذه السورة عقب سورة الأنعام فيما ألهمنى الله سبحانه : أن سورة الأنعام لما كانت لبيان الخلق ، وقال فيها : (هو الذى خلقكم من طين) « ٢ » . وقال فى بيان القرون : (كم أهلكنا من قبلهم من قرن) « ٦ » . وأشير فيها إلى ذكر المرسلين ، وتعداد كثير منهم ، وكانت الأمور الثلاثة على وجه الإجمال ، لا التفصيل ، ذكرت هذه السورة عقبها ، لأنها مشتملة على شرح الأمور الثلاثة وتفصيلها .

فبسط فيها قصة خلق آدم أبلغ بسط ، بحيث لم تبسط فى سورة كما بسطت فيها .[2] وذلك تفصيل إجمال قوله : (خلقكم من طين) « ٦ : ٢ » ثم فصلت قصص المرسلين وأممهم ، وكيفية إهلاكهم ، تفصيلا تاما شافيا مستوعباً ، لم يقع نظيره فى سورة غيرها[3] ، وذلك بسط حال القرون المهلكة ورسلهم ، فكانت هذه السورة شرحا لتلك الآيات الثلاث .

وأيضاً ، فذلك تفصيل قوله : (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) « ٦ : ١٦٥ » . ولهذا صدَّر هذه السورة بخلق آدم الذى جعله الله فى الأرض

---

(١) أخرجه البخارى فى بدء الخلق : ١٢٩/٤ . وفيه (كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش) .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) الى : وقال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) (١١ — ٢٥)

(٣) (٣) وذلك من قوله : (لقد أرسلنا نوحا الى قومه) الى (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (٥٩ — ١٧٦) .

خليفة[1] . وقال فى قصة عاد : (جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) « ٦٩ » . وفى قصة ثمود : (جعلكم خلفاء من بعد عاد) « ٧٤ » .

وأيضاً فقد قال فى الأنعام : (كتب ربكم على نفسه الرحمة) «١٢» . وهو موجز ، وبسطه هنا بقوله : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون) « ١٥٦ » . إلى آخره . فبين من كتبها لهم .

وأما وجه ارتباط أول هذه السورة بآخر الأنعام فهو : أنه قد تقدم هناك : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه) « ١٥٣ » . وقوله : (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه) « ١٥٥ » . فافتتح هذه السورة أيضاً باتباع الكتاب فى قوله : (كتاب أنزل إليك) إلى (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) « ٢ ، ٣ » .

وأيضاً لما تقدم فى الأنعام : (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) « ١٥٩ » . (ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون) « ١٦٤ » . قال فى مفتتح هذه السورة : (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين . فلنقصن عليهم بعلم) « ٦ ، ٧ » . وذلك شرح التنبئة المذكورة .

وأيضاً فلما قال فى الأنعام : (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) «١٦» الآية . وذلك لا يظهر إلا فى الميزان ، افتتح هذه السوره بذكر الوزن ، فقال : (والوزن يومئذ الحق) « ٨ » . ثم ذكر من ثقلت موازينه ، وهو من زادت حسناته على سيئاته ، ثم من خفت موازينه ، وهو من زادت سيئاته على حسناته ، ثم ذكر بعد ذلك أصحاب الأعراف ، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم .

---

(١) وذلك فى الآية رقم (١١) الى آخر الآية رقم (٢٥) .

اعلم أن وضع هذه السورة وبراءة هنا ليس بتوقيف من الرسول ﷺ والصحابة ، كما هو الراجح فى سائر السور ، بل اجتهاد من عثمان رضى الله عنه .

وقد كان يظهر فى بادىء الرأى : أن المناسب إيلاء الأعراف بيونس وهود ، لاشتراك كل فى اشتمالها على قصص الأنبياء ، وأنها مكية النزول ، خصوصاً أن الحديث ورد فى فضل السبع الطوال ، وعدوا السابعة يونس ، وكانت تسمى بذلك كما أخرجه البيهقى فى الدلائل[1] . ففى فصلها من الأعراف بسورتين هما الأنفال وبراءة فصل للنظير عن سائر نظائره ، هذا مع قصر سورة الأنفال ، بالنسبة إلى الأعراف وبراءة .

وقد استشكل ابن عباس حبر الأمة قديما ذلك . فأخرج أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال . قلت لعثمان : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى[2] . وإلى براءة وهى من المئين[3] ، فقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ فقال عثمان : كان رسول ﷺ ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ،

---

(١) السبع الطوال كما أخرج النسائى : ١١٤/١ عن ابن عباس : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف . قال الراوى : وذكر السابعة فنسيتها . وأورد السيوطى نقلا عن ابن أبى حاتم وغيره عن سعيد بن جبير : أن السابعة يونس (الاتقان : ٢٢٠/١) .

(٢) المثانى : اما أنها من الثناء . أو فيها الثناء والدعاء . أو لأنها تثنى بغيرها . (الاتقان : ١٩٠/١) وقيل : لأنها ثانية للمئين ، تالية لها وقيل : لتثنية الامثال فيها بالعبر . حكاه السيوطى عن النكزاوى (الاتقان : ٢٢٠/١) .

(٣) المئين : مازادت آياتها على المائة أو قاربتها ، وهى ماوليت الطوال (الاتقان : ٢٢٠/١) .

فيقول : ضعوا هؤلاء الآيات فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا ، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولا ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، فظننت أنها منها ، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها ، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم[1] ، ووضعتها فى السبع الطوال[2] .

فانظر إلى ابن عباس رضى الله عنه ، كيف استشكل على عثمان رضى الله عنه أمرين : وضع الأنفال وبراءة فى أثناء السبع الطوال ، مفصولا بهما بين السادسة والسابعة ، ووضع الأنفال وهى قصيرة مع السور الطويلة . وانظر كيف أجاب عثمان رضى الله عنه أولا بأنه لم يكن عنده فى ذلك توقيف ، فإنه استند إلى اجتهاد ، وأنه قرن بين الأنفال وبراءة لكونها شبيهة بقصتها فى اشتمال كل منهما على القتال ، ونبذ العهود ، وهذا وجه بيّن المناسبة جلىّ ، فرضى الله عن الصحابة ، ما أدق أفهامهم ! وأجزل آراءهم ! وأعظم أحلامهم !

وأقول : يتم بيان مقصد عثمان رضى الله عنه فى ذلك بأمور فتح الله بها :

الأول : أنه جعل الأنفال قبل براءة مع قصرها ، لكونها مشتملة على البسملة ، فقدمها لتكون لفظة منها ، وتكون براءة بخلوها منها كتتمتها وبقيتها ، ولهذا قال جماعة من السلف : إن الأنفال وبراءة سورة واحدة ، لا سورتان[3]

---

(1) قال الباقلانى : انما لم تكتب البسملة أول براءة لأن النبى صلى الله عليه وسلم أراد أن يعلم من بعده أن كاتبى فواتح السور لم يكتبوها برأيهم ، وانما اتبعوا ما سن وشرع ، والا فلا فرق بين براءة وغيرها لو كان من طريق الرأى . وأيضا فان براءة نزلت بالسيف وبعض العهود ، وفى البسملة رأفة ورحمة وأمان ، فتركت لأجل ذلك (نكت الانتصار لنقل القرآن : ٧٧ ، ٧٨) .

(2) أخرجه أحمد فى المسند : ١/٥٧ وأبو داود فى الصلاة : ١/٢٠٨ والترمذى فى التفسير : ٨/٤٧٧ — ٤٧٨ والحاكم فى المستدرك : ٢/٣٣٠ . وانظر الدر المنثور : ٢/٢٠٧ وعزاه السيوطى لابن أبى شيبة والنسائى ولم أجده فى النسائى .

(3) أخرجه أبو الشيخ عن أبى روق ، وابن أبى حاتم عن سفيان ، وابن أشتة عن ابن لهيعة (الاتقان : ١/٢٢٥)

الثانى : أنه وضع براءة هنا لمناسبة الطول ، فإنه ليس فى القرآن بعد الأعراف أنسب ليونس طولا منها ، وذلك كاف فى المناسبة .

الثالث : أنه خلَّل بالسورتين [الأنفال وبراءة] أثناء السبع الطوال المعلوم ترتيبها فى العصر الأول ، للإشارة إلى أن ذلك أمر صادر لا عن توقيف ، وإلى أن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يبين محلهما ، فوضعا كالموضع المستعار بين السبع الطوال ، بخلاف ما لو وضعتا بعد السبع الطوال ، فإنه كان يوهم أن ذلك محلهما بتوقيف ، وترتيب السبع الطوال يرشد إلى دفع هذا الوهم[1] .

فانظر إلى هذه الدقيقة التى فتح الله بها ، ولا يغوص عليها إلا غواص .

الرابع : أنه لو أخرها وقدم يونس ، وأتى بعد براءة بهود ، كما فى مصحف أبى بن كعب ، لمراعاة مناسبة السبع الطوال ، وإيلاء بعضها بعضا ، لفات مع ما أشرنا إليه أمر آخر آكد فى المناسبة . فإن الأولى بسورة يونس أن تولى بالسور الخمس التى بعدها ، لما اشتركت فيه من الاشتمال على القصص ، ومن الافتتاح بالذكر ، وبذكر الكتاب ، ومن كونها مكيات ، ومن تناسب ما عدا الحجر فى المقدار ـ وبالتسمية باسم نبى ، والرعد اسم[2] ملك ، وهو مناسب لأسماء الأنبياء .

فهذه ستة وجوه فى مناسبة الاتصال بين يونس وما بعدها ، وهى آكد من ذلك الوجه السابق فى تقديم يونس بعد الأعراف .

ولبعض هذه الأمور قدمت سورة الحجر على النحل ، مع كونها أقصر منها

---

(1) أى : وهم أن يكون وضعهما بين السبع الطوال بتوقيف . وقد جاء ترتيب السبع الطوال متواليات .

(2) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس : ١٤٥/٨ أن اليهود قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن الرعد . فقال : « ملك من الملائكة موكل بالسحاب » . وذكر السيوطى فى الاتقان : ٧٩/٤ : أن ابن أبى حاتم أخرجه عن عكرمة ، وأن مجاهد سئل عن الرعد فقال : ملك . ألم تر الله يقول (ويسبح الرعد بحمده) .

ولو أخرت براءة عن هذه السور الست المناسبة جدا بطولها لجاءت بعد عشر سور أقصر منها بخلاف وضع سورة النحل بعد الحجر ، فإنها ليست كبراءة فى الطول .

ويشهد لمراعاة الفواتح فى مناسبة الوضع ما ذكرنا من تقديم الحجر على النحل لمناسبة ذوات (الر) قبلها ، وما تقدم من تقديم آل عمران على النساء وإن كانت أقصر منها لمناسبة البقرة ، مع الافتتاح بـ (الم) ، وتوالى الطواسين والحواميم ، وتوالى العنكبوت والروم والقمر والسجدة ، لافتتاح كل بـ (الم) ، ولهذا قدمت السجدة على الأحزاب التى هى أطول منها .

هذا ما فتح الله به .

وأما ابن مسعود فقدم فى مصحفه البقرة على النساء ، وآل عمران ، والأعراف ، والأنعام ، والمائدة ، ويونس ، فراعى الطوال ، وقدم الأطول فالأطول . ثم ثنى بالمئين ، فقدم براءة ، ثم النحل ، ثم هود ، ثم يوسف ، ثم الكهف . وهكذا الأطول فالأطول ، وذكر الأنفال بعد النور[٢] .

ووجه مناسبتها لها : أن كلا منهما مدنية ، ومشتملة على أحكام ، وأن فى النور (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) « ٥٥ » الآية . وفى الأنفال (واذكروا إذ أنتم مستضعفون فى الأرض تخافون) « ٢٦ » الآية . ولا يخفى ما بين الآيتين من المناسبة ، فإن الأولى مشتملة على الوعد بما حصل ، وذكّر به فى الثانية . فتأمل.

---

(١) انظر الاتقان : ١/٢٢٤ نقلا عن ابن أشتة فى المصاحف من رواية جرير بن عبد الحميد .

أقول : قد عرف وجه مناسبتها ، ونزيد هنا أن صدرها[1] تفصيل لإجمال قوله فى الأنفال : (وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) «٥٨» . وآيات الأمر بالقتال متصلة بقوله هناك : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) «٦٠» الآية . ولذا قال هنا فى قصة المنافقين : (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) «٤٦» .

ثم بين السورتين تناسب من وجه آخر ، وهو : أنه سبحانه فى الأنفال تولى قسمة الغنائم ، وجعل خُمسها خَمسة أخماس[2] ، وفى براءة تولى قسمة الصدقات ، وجعلها لثمانية أصناف[3] .

« سورة يونس »

أقول : قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم فى الأنفال . ونزيد هنا : أن مطلعها شبيه بمطلع سورة الأعراف ، وأنه سبحانه قال فيها : (أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا) «٢» فقدم الإنذار وعممه ، وأخر البشارة وخصصها . وقال تعالى فى مطلع الأعراف : (لتنذر به وذكرى للمؤمنين) «٢» . فخص الذكرى وأخرها ، وقدم الإنذار ، وحذف مفعوله ليعُم .

وقال هنا : (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام

---

(١) صدر التوبة : (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) الى (فاذا انسلخ الأشهر الحرام فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم — (٣ — ٥) .

(٢) وذلك قوله : (واعلموا انما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل — (٤١) الآية .

(٣) وذلك قوله : (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عزيز حكيم — (٦٠) .

ثم استوى على العرش) « ٣ » . وقال فى الأوائل ، أى أوائل الأعراف مثل ذلك[1] .

وقال هنا : (يدبر الأمر) « ٣ » . وقال هناك : (مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر) « ٥٤ » .

وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه فى الأعراف ، فاختصر ذكر عذابهم ، وبسطه فى هذه السورة أبلغ بسط[2] .

فهى شارحة لما أجمل فى سورة الأعراف منه .

« سورة هود »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يونس زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن سورة يونس ذكر فيها قصة نوح مختصرة جداً ، مجملة[3] ، فشرحت فى هذه السورة وبسطت بما لم يبسطه فى غيرها من السور ، ولا فى سورة الأعراف على طولها ، ولا فى سورة (إنا أرسلنا نوحاً) التى أفردت لقصته .

فكانت هذه السورة شارحة لما أجمل فى سورة يونس . فإن قوله هناك : (واتبع ما يوحى إليك) « ١٠٩ » هو عين قوله هنا : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) « ٢ » . [فكان أول هود تفصيلا لخاتمة يونس].

---

(١) وذلك فى قوله : (ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار — (٥٤) .

(٢) فى عذاب فرعون قال تعالى فى الاعراف : (فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين — (١٣٦) . وقال فى يونس : (فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت) الى (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية (٩٠ — ٩٢) .

(٣) وذلك من قوله : (واتل عليهم نبأ نوح) الى (فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧١ — ٧٣) .

(٤) وذلك فى قوله : (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) الى (قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك — (٢٥ — ٤٨) .

أقول : وجه وضعها بعد سورة هود زيادة على الأوجه الستة السابقة : أن قوله فى مطلعها : (نحن نقص عليك أحسن القصص) « ٣ » مناسب لقوله فى مقطع تلك : (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك) «١٢٠»

وأيضاً فلما وقع فى سورة هود . (فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) « ٧١ » .وقوله : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) « ٧٣ » . ذكرهنا حال يعقوب مع أولاده ، وحال ولده الذى هو من أهل البيت مع إخوته ، فكان كالشرح لإجمال ذلك .

وكذلك قال هنا : (ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق) « ٦ » . فكان ذلك كالمقترن بقوله فى هود : (رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت) « ٤٨ » .

وقد روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد فى ترتيب النزول : أن يونس نزلت ، ثم هود ، ثم يوسف[1] . وهذا وجه آخر من وجوه المناسبة فى ترتيب هذه السور الثلاث ، لترتيبها فى النزول هكذا .

« سورة الرعد »

أقول : وجه وضعها بعد سورة يوسف زيادة على ما تقدم بعد ما فكرت فيه طائفة من الزمان : أنه سبحانه قال فى آخر تلك : (وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) « ١٠٥ » . فذكر الآيات السمائية والأرضية مجملة ، ثم فصل فى مطلع هذه السورة .

---

(١) الانتقان : ٩٧/١ نقلا عن محمد بن الحارث بن أبيض فى جزئه .

فقوله (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى إلى أجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون . وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) «٢-٤» تفصيل الآيات الأرضية .

هذا مع اختتام سورة يوسف بوصف الكتاب ، ووصفه بالحق ، وافتتاح هذه بمثل ذلك[1] ، وهو من تشابه الأطراف .

« سورة ابراهيم »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الرعد زيادة على ما تقدم بعد إفكارى فيه برهة : أن قوله فى مطلعها : (كتاب أنزلناه إليك) «٢» مناسب لقوله : فى مقطع تلك : (ومَن عنده علم الكتاب) « ٤٣ » . على أن المراد بـ (من) هو : الله تعالى جل جلاله .

وأيضاً فى الرعد : (ولقد استهزىء برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم) «٣٢» . وذلك مجمل فى أربعة مواضع : الرسل ، والمستهزئين ، وصفة الاستهزاء ، والأخذ . وقد فصلت الأربعة فى قوله : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود) « ٩-١٦ » الآيات[2] .

---

(١) (٢) ختام يوسف : (ماكان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون — (١١١) . وافتتاح هذه : (تلك آيات الكتاب والذىانزل اليك من ربك الحق ولكن اكثر الناس لا يؤمنون — (١) .

(٢) المواضع الاربعة المفصلة لما أجمل فى سورة الرعد هى : الرسل . فى قوله : (الم يأتكم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله (٩) الاية .

والمستهزئون ، وصفة الاستهزاء ، فى قوله : (فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به (٩) . وقوله : (ان انتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا (١٠) لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا (١٣) . والأخذ فى قوله تعالى لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم (١٣ ، ١٤) . ٩١/٢ .

« ســورة الحجــر »

أقول : تقدمت الأوجه فى اقترانها بالسورة السابقة . وإنما أُخرت عنها لقصرها بالنسبة إليها ، وهـذا القسم من سور القرآن للمثين ، فناسب تقديم الأطول ، مع مناسبة ماختتمت به ابراعة الختام ، وهو قوله : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)« ٩٩ » . فإنه مفسر بالموت[1] ، وذلك مقطع فى غاية البراعة .

وقد وقع ذلك فى أواخر السور المقترنة . ففى آخر آل عمران : (واتقوا الله لعلكم تفلحون) « ٢٠٠ » . وفى آخر الطواسين : (كل شىء هالك إلا وجهه ألاله الحكم وإليه ترجعون) « ٢٨ : ٨٨ » . وفى آخر ذوات (الر) : (وانتظر إنهم منتظرون) « ٣٢ : ٣٠ » . وفى آخر الحواميم (كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ)« ٤٦ : ٣٥ » .

ثم ظهر لى وجه اتصال أول هذه السورة بآخر سورة إبراهيم ، فإنه تعالى لما قال هناك فى وصف يوم القيامة : (وبرزوا لله الواحد القهار . وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد . سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) « ٤٨ : ٥٠ » . قال هنا : (ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) « ٢ » فأخبر أن المجرمين المذكورين إذا طال مكثهم فى النار ورأوا عصاة المؤمنين الموحدين قدأخرجوا منها ، تمنوا أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين . وذلك وجه حسن فى الربط ، مع اختتام آخر تلك بوصف الكتاب ، وافتتاح هذه به[2] ، وذلك من تشابه الأطراف .

« ســورة النحــل »

أقول : وجه وضعها بعد سورة الحجر : أن آخرها شديد الالتئام بأول هذه ، فإن قوله فى آخر تلك : (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) « ٩٩ » .

(١) أخرجه البخارى عن سالم : ١٠٢/٦ . ونفس المعنى أخرجه البخارى فى الجنائز : وأحمد فى المسند : ٤٣٦/٦ .

(٢) ختام ابراهيم وهذا ابلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو اله واحد وليذكر أولو الألباب (٥٢) وافتتاح هذه : (تلك آيات الكتاب وقرآن مبين (١) ، فكأنهما متصلتان .

الذى هو مفسر بالموت ، ظاهر المناسبة لقوله هنا : (أتى أمر الله) « ١ » . وانظر كيف جاء فى المقدّمة بيأتيك اليقين ، وفى المتأخرة بلفظ الماضى ، لأن المستقبل سابق على الماضى ، كما تقرر فى المعقول والعربية[١] .

وظهر لى أن هذه السورة شديدة الاعتلاق بسورة إبراهيم ، وإنما تأخرت عنها لمناسبة الحجر ، فى كونها من ذوات (الر) .

وذلك : أن سورة إبرهيم وقع فيها ذكر فتنة الميت ، ومن هو ميت وغيره[٢] ، وذلك أيضا فى هذه بقوله : (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) « ٢٨ » الآيات . فذكر الفتنة ، وما يحصل عندها من الثبات والإضلال ، وذكر هنا ما يحصل عقب ذلك من النعيم والعذاب[٣] .

ووقع فى سورة إبرهيم : (وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) « ٤٦ » . وقيل : إنها فى الجبار الذى أراد أن يصعد السماء بالنسور[٤] . ووقع هنا أيضا فى قوله : (وقد مكر الذين من قبلهم) « ٢٦ » .

ووقع فى سورة إبراهيم ذكر النعم ، وقال عقبها : (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) « ٣٤ » . ووقع هنا ذكر ذلك معقّبا بمثل ذلك .

---

(١) مراد المؤلف أن المضارع سابق على الماضى فى الكلام والاخبار ، لافى الزمان . نقولك الآن يقوم الناس لرب العالمين يوم القيامة سابق فى الخبر ، ولا يجوز ان يقال : قام الناس لرب العالمين يوم القيامة الابعد تمام ذلك البحث .

(٢) وذلك فى قوله : (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ (١٧٠) .

(٣) وذلك فى قوله تعالى عن العذاب : (فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها (٢٩) . وفى النعيم : (جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار (٣٢) .

(٤) يروى أنه جوع نسرين ، وأوثق رجل كل منهما فى تابوت ، وقعد هو وآخر فى التابوت ورفع عصا عليها اللحم ، فطارا يتبعان اللحم حتى غابا فى الجو (تفسير الطبرى : ٣ / ١٦٠) .

« ســورة بنى اسرائيل »

اعلم أن هذه السورة والأربع بعدها من قديم ما أنزل . أخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال فى بنى إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء : « من العتاق الأول ، وهن من تلادى[1] » . وهذا وجه فى ترتيبها ، وهو اشتراكها فى قدم النزول ، وكونها مكيات ، وكونها مشتملة على القصص .

وقد ظهر لى فى وجه اتصالها بسورة النحل : أنه سبحانه لما قال فى آخر النحل : (إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه) « ١٢٤ » . فسَّر فى هذه شريعة أهل السبت وشأنهم ، فذكر فيها جميع ما شرع لهم فى التوراة ، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : « التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل »[2] . وذكر عصيانهم وفسادهم ، وتخريب مسجدهم ، ثم ذكر استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، وإرادتهم إخراجه من المدينة ، ثم ذكر سؤالهم إياه عن الروح ، ثم ختم السورة بآيات موسى التسع ، وخطابه مع فرعون ، وأخبر أن استفزازهم للنبى صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من المدينة هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم ، ووقع ذلك أيضا .

ولما كانت هذه السورة مصدَّرة بقصة تخريب المسجد الأقصى أُسرِى بالمصطفى إليه ، تشريفا له بحلول ركابه الشريف . فلله الحمد على ما ألهم .

« ســورة الكهف »

قال بعضهم : مناسبة وضعها بعد سورة الإسراء : افتتاح تلك بالتسبيح ،

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير : ١٨٩/٦ عن ابن مسعود .
(٢) تفسير ابن جرير : ٢٤٣/١٧ .

وهذه بالتحميد[1] ، وهما مقترنان فى القرآن وسائر الكلام بحيث يسبق التسبيح التحميد ، نحو : (فسبح بحمد ربك) « ١٥ : ٩٨ : ٢٠ : ١٣ و ٤٠ : ٥٥ و ٥٠ : ٣٩ و ٥٢ : ٤٨ » . وسبحان الله وبحمده .

قلت : مع اختتام ما قبلها بالتحميد أيضا[2] ، وذلك من وجوه المناسبة بتشابه الأطراف .

ثم ظهر لى وجه آخر أحسن فى الاتصال . وذلك : أن اليهود أمروا المشركين أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن ثلاثة أشياء : عن الروح ، وعن قصة أصحاب الكهف ، وعن قصة ذى القرنين[3] . وقد ذكر جواب السؤال الأول فى آخر سورة بنى إسرائيل ، فناسب اتصالها بالسورة التى اشتملت على جواب السؤالين الآخرين .

فإن قلت : هلا جمعت الثلاثة فى سورة واحدة ؟

قلت : لما لم يقع الجواب عن الأول بالبيان[4] ، ناسب فصله فى سورة .

ثم ظهر لى وجه آخر : وهو أنه لما قال فيها : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) «٥٨» . والخطاب لليهود ، واستظهر على ذلك بقصة موسى فى بنى إسرائيل مع

---

(١) وسبب آخر ذكره ابن الزملكانى هو : أن سورة الاسراء اشتملت على الاسراء الذى كذب به المشركون وكذبوا الرسول صلى الله عليه وسلم من أجله ، وتكذيبه تكذيب لله ، نأتى بسبحان تنزيها لله عما نسب الى نبيه من الكذب . وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخر الوحى ، نزلت مبينة أن الله لم يقطع نعمته عن رسوله ولا المؤمنين فناسب افتتاحها بالحمد (الاتقان : ٣٨٧/٣) .

(٢) ختام الاسراء : (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك (١١١) الآية .

(٣) انظر تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥

(٤) لم يقع الجواب بالبيان ، وانما وقع باسناد علم الروح الى الله : (قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا ـ (٨٥) .

الخضر، التى كان سببها ذكر العلم والأعلم[1]، وما دلت عليه من إحاطة معلومات الله عزوجل التى لا تحصى، فكانت هذه السورة كإقامة الدليل لما ذكر من الحكم.

وقد ورد فى الحديث أنه لما نزل: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) قال اليهود: قد أوتينا التوراة، فيها علم كل شىء، فنزل: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) «١٠٩» فى هذه السورة[2]. فهذا وجه آخر فى المناسبة. وتكون السورة من هذه الجهة جوابا عن شبهة الخصوم فيما قدر بتلك.

وأيضا فلما قال هناك: (فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً) «١٠٤» شرح ذلك هنا وبسطه، بقوله: (فإذا جاء وعد ربى جعله دكاء) إلى (ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعاً. وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً) «٩٨ : ١٠٠»

فهذه وجوه عديدة فى الاتصال.

« سورة مريم »

أقول: ظهر لى فى وجه مناسبتها لما قبلها: أن سورة الكهف اشتملت على عدة أعاجيب: قصة أصحاب الكهف، وطول لبثهم هذه المدة الطويلة بلا أكل ولا شرب، وقصة موسى مع الخضر، وما فيها من الخارقات، وقصة ذى القرنين. وهذه السورة فيها أعجوبتان. قصة ولادة يحيى بن زكريا[3]، وقصة ولادة عيسى، فناسب تتاليهما.

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند: ٢٥٥/١ وفيه أوتينا علما كثيرا، أوتينا التوراة، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا).

(٢) وفى رواية لابن جرير فى التفسير: ١٠٤/١٥: فنزلت: (ولو أن مافى الارض من شجرة أقلام) الآية.

(٣) ولادة يحيى كانت عجيبة، لأن أمه كانت قد بلغت سن اليأس، وأباه قد بلغ من الكبر عتيا، فلا ينجب مثلهما أبدا.

وأيضا فقد قيل : إن أصحاب الكهف يبعثون قبل قيام الساعة ، ويحجون مع عيسى ابن مريم حين ينزل[1] ، ففى ذكر سورة مريم بعد سورة أصحاب الكهف مع ذلك — إن ثبت — ما لا يخفى من المناسبة .

وقد قيل أيضا : إنهم من قوم عيسى ، وإن قصتهم كانت فى الفترة ، فناسب توالى قصتهم وقصة نبيهم[2] .

« سورة طه »

أقول : روينا عن ابن عباس وجابر بن زيد فى ترتيب النزول : أن طه نزلت بعد سورة مريم ، بعد ذكر سورة أصحاب الكهف . وذلك وحده كاف فى مناسبة الوضع ، مع التآخى بالافتتاح بالحروف المقطعة .

وظهر لى وجه آخر ، وهو : أنه لما ذكر فى سورة مريم قصص عدة من الأنبياء ، وهم . زكريا ، ويحيى ، وعيسى ، الثلاثة مبسوطة . وإبراهيم ، وهى بين البسط والإيجاز . وموسى ، وهى موجزة بجملة[3] أشار إلى بقية النبيين فى الآية الأخيرة إجمالا[4] . وذكر فى هذه السورة شرح قصة موسى ، التى أجملها هناك ، فاستوعبها غاية الاستيعاب ، وبسطها أبلغ بسط[5] ، ثم أشار إلى تفصيل قصة آدم ، الذى وقع مجرد اسمه هناك[6] . ثم أورد فى سورة الأنبياء بقية قصص من لم يذكر فى مريم ، كنوح ، ولوط ، وداود ، وسليمان ، وأيوب وذى الكفل ، وذى النون ، وأشير إلى قصة من ذكرت قصته إشارة

---

(1) لم نعثر على هذا الرأى فيما بين أيدينا من مصادر .

(2) قال ابن كثير : الظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية ، لان اليهود أشاروا على قريش بسؤال النبى صلى الله عليه وسلم عنهم ، فدل على أنه محفوظ قبل عيسى . (تفسير ابن كثير : ١٣٧/٥) .

(3) وردت قصة موسى فى ثلاث آيات قصار من مريم (٥١ ، ٥٢ ، ٥٣) .

(4) وذلك فى قوله تعالى : (أولئك الذين أنعم الله من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم واسرائيل وممن هدينا واجتبينا (٥٨) الآية .

(5) وذلك فى قوله : (وهل أتاك حديث موسى) الى (ثم لننسفنه فى اليم نسفا — (٩ — ٩٧) .

(6) وقع مجرد ذكر اسم آدم فى مريم فى قوله : (من ذرية آدم (٥٨) .وذكرت قصته مفصلة فى طه من قوله : (واذا قلنا للملائكة اسجدوا لادم) الى (قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو (١١٦ — ١٢٣) .

وجيزة، كموسى، وهارون، وإسماعيل، وزكريا، ومريم، لتكون السورتان كالمتقابلتين.

وبسطت فيها قصة إبرهيم البسط التام فيما يتعلق به مع قومه، ولم تذكر حاله مع أبيه إلا إشارة[1]. كما أنه فى سورة مريم ذكر حاله مع قومه إشارة، ومع أبيه مبسوطا[2]. فانظر إلى عجيب هذا الأسلوب، وبديع هذا الترتيب.

« سورة الأنبياء »

قدمت ما فيها مستوفى. وظهر لى فى اتصالها بآخر طه: أنه سبحانه لما قال: (قل كل متربص فتربصوا) « ١٣٥ ». وقال قبله: (ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجلا مسمى) «١٢٩». قال فى مطلع هذه: (اقترب للناس حسابهم) « ١ » إشارة إلى قرب الأجل، ودنو الأمل المنتظر.

وفيه أيضاً مناسبة لقوله هناك: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم) « ١٣١ » الآية. فإن قرب الساعة يقتضى الإعراض عن هذه الحياة الدنيا، لدنوها من الزوال والفناء، ولهذا ورد فى الحديث: أنها لما نزلت قيل لبعض الصحابة: هلا سألت النبى صلى الله عليه وسلم عنها؟ فقال: « نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا »[3].

« سورة الحج »

أقول: وجه اتصالها بسورة الأنبياء: أنه ختمها بوصف الساعة فى قوله: (واقترب الوعد الحق فإذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا) «٩٧». وافتتح

---

(١) قصة ابراهيم فى الانبياء وردت فى قوله: (ولقد آتينا ابراهيم رشده (٥١) الآية الى: (وكانوا لنا عابدين) (٧٣). وكلها فى ابراهيم وقومه. أما عن ابراهيم وأبيه فأشير اليها فى قوله (اذ قال لأبيه وقومه (٥٢) الآية.

(٢) وردت قصة ابراهيم وأبيه فى مريم من قوله تعالى: (اذ قال ابراهيم لابيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر (٤٢) الى (سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا (٤٧). وجاءت الاشارة اليه مع قومه فى قوله تعالى: (واعتزلكم وماتدعون من دون الله (٤٨) الآية.

(٣) لم نعثر على هذا الحديث فيما بين أيدينا من مصادر.

هذه بذلك ، فقال : (إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى)—«١ ، ٢» .

« سورة المؤمنون »

أقول : وجه اتصالها بسورة الحج : أنه لما ختمها بقوله : (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) «٧٧» . وكان ذلك مجملا ، فصَّله فى فاتحة هذه السورة ، فذكر خصال الخير التى من فعلها فقد أفلح ، فقال : (قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون) «١—٦» . الآيات .

ولما ذكر أول الحج قوله : (ياأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة) «٥» الآية . زاده هنا بياناً فى قوله : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين) «١٢، ١٣» الآيات . فكل جملة أوجِزَت هناك فى القصد أطنب فيها هنا .

« سورة النور »

أقول : وجه اتصالها بسورة قد أفلح : أنه لما قال : (والذين هم لفروجهم حافظون) «٥». ذكر فى هذه أحكام من لم يحفظ فرجه ، من الزانية والزانى ، وما اتصل بذلك من شأن القذف ، وقصة الإفك ، والأمر بغض البصر[1] ، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج ، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف ،

---

(١) الزانية والزانى فى قوله : (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة). الى (وحرم ذلك على المؤمنين (٢ ، ٣) .
وجاء القذف فى قوله : (والذين يرمون المحصنات) الى (وان الله تواب رحيم (٦ — ١٠) . وهو شامل لاحكام اللعان .
وقصة الافك هى التى أرجف بها المنافقون فى حق أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حتى برأها الله تعالى : (ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم) الى (والله عزيز حكيم (١٢ — ١٨) .
وجاء غض البصر فى قوله : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) الى (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون (٣٠ — ٣١) .

وحفظ فَرجه ، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا[1].

ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط ، ولا تناسق أبدع من هذا النسق .

« ســورة الفرقــان »

ظهر لى بفضل الله بعدما فكرت فى هذه : أن نسبة هذه السورة لسورة النور ، كنسبة سورة الأنعام إلى المائدة .

من حيث أن النور قد ختمت بقوله : (لله مافى السموات والأرض). «٦٤» كما ختمت المائدة بقوله . (لله ملك السموات والأرض وما فيهن) «١٢٠» .

وكانت جملة النور أخصر من المائدة ، ثم فصلت هذه الجملة فى سورة الفرقان فافتتحت بقوله . (الذى له ملك السموات) إلى قوله . (وخلق كل شىء فقدره تقديراً) «٢» . كما افتتحت الأنعام بمثل ذلك[2] . وكان قوله عقبه . (واتخذوا من دونه آلهة) «٣» إلى آخره ، نظير قوله هناك . (ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) «١» .

ثم ذكر فى خلال هذه السورة جملة من المخلوقات ، كمدّ الظل ، والليل ، والنوم ، والنهار ، والرياح ، والماء ، والأنعام ، والأناسى ، ومرْج البحرين ، والإنسان ، والنسب ، والصِّهر ، وخلق السموات والأرض فى ستة أيام ، والاستواء على العرش ، وبروج السماء ، والسراج ، والقمر ، إلى غير ذلك ، مما هو تفصيل لجملة : (لله مافى السموات والأرض)[3] . كما فصل آخر المائدة فى الأنعام بمثل ذلك[4]. وكان البسط فى الأنعام أكثر لطولها .

---

(١) جاء الأمر بالنكاح ، والاستعفاف لغير القادر ، وعدم اكراه الفتيات على البغاء فى الآيات (٣٢ — ٣٣) .

(٢) افتتاح الانعام قوله تعالى : (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور (١) الآية .

(٣) جميع هذه المعانى جاءت فى قوله تعالى : (ألم تر الى ربك كيف مد الظل) الى قوله : (تبارك الذى جعله فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا (٤٦ — ٦١) .

(٤) هذا التفصيل جاء فى الانعام مفرقا فى الآيات : (١٣ ، ١٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ٦١، ٦٥ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) .

ثم أشار فى هذه السورة إلى القرون المكذبة وإهلاكم ، كما أشار فى الأنعام إلى ذلك[1]. ثم أفصح عن هذه الإشارة فى السورة التى تليها وهى الشعراء بالبسط التام ، والتفصيل البالغ[2]. كما أوضح تلك الإشارة التى فى الأنعام ، وفصلها فى سورة الأعراف التى تليها[3] .

فكانت هاتان السورتان [الفرقان والشعراء] فى المثانى ، نظير تينك السورتين [الأنعام والأعراف] فى الطوال ، واتصالهما بآخر النور ، نظير اتصال تلك بآخر المائدة ، المشتملة على فصل القضاء[4] .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهى . أنه إذا وقعت سورة مكية بعد سورة مدنية ، افتتح أولها بالثناء على الله ، كالأنعام بعد المائدة ، والإسراء بعد النحل ، وهذه بعد النور ، وسبأ بعد الأحزاب ، والحديد بعد الواقعة ، وتبارك بعد التحريم[5]، لما فى ذلك من الإشاره إلى نوع استقلال ، وإلى الإنتقال من نوع إلى نوع .

« سورة الشعراء »

أقول . وجه اتصالها بسورة الفرقان أنه تعالى لما أشار فيها إلى قصص مجملة بقوله . (ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً . فقلنا

---

(١) تفصيل أحوال القرون المكذبة وإهلاكهم فى الفرقان فى قوله : (فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا) الى (وكلا تبرنا تتبيرا) (٣٦ — ٣٩) . وفى الانعام فى قوله : (قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١١) .

(٢) جاء ذلك فى الآيات (٦٤ — ١٨٩) حيث جاء عن قوم كل رسول تكذيبهم اياه ، ووسيلة اهلاكهم .

(٣) تفصيل أحوال القرون المكذبة جاء فى الاعراف من قوله : (لقد أرسلنا نوحا) الى (فأولئك هم الخاسرون (٥٩ — ١٧٨) .

(٤) آخر المائدة (لله ملك السموات والارض وما فيهن وهو على كل شىء قدير) (١٢٠) وهو يشتمل على فصل القضاء ضمنا . وأول الانعام . (الحمد لله الذى خلق السموات والارض) (١) الآية .

(٥) قول المؤلف : والاسراء بعد النحل ، لا يتفق مع قاعدته ، فكلاهما مكى ، وقوله : والحديد بعد الواقعة ، عكس قاعدته ، فالواقعة مكية ، والحديد مدنية ، وهناك سور مكية جاءت بعد المدنية وافتتحت بالثناء على القرآن ، كيونس بعد التوبة ، وابرهيم بعد الرعد ، والنحل بعد الشعراء ، وق بعد الرحمن ، والثناء على القرآن ثناء على الله ضمنا .

وهناك مكيات بعد مدنيات لم تفتح بالثناء على الله ، كالواقعة بعد الرحمن .

اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً . وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً . وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً) «٣٥—٣٨» . شرح هذه القصص، وفصلها أبلغ تفصيل فى الشعراء التى تليها ، ولذلك رتبت على ترتيب ذكرها فى الآيات المذكورة . فبدىء بقصة موسى[1] ، ولو رتبت على الواقع لأخرت كما فى الأعراف .

فانظر إلى هذا السر اللطيف الذى من الله بإلهامه .

ولما كان فى الآيات المذكورة قوله . (وقروناً بين ذلك كثيراً) . زاد فى الشعراء تفصيلا لذلك قصة قوم إبراهيم ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .

ولما ختم الفرقان بقوله : (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) «٦٣» . وقوله : (وإذا مروا باللغو مروا كراماً)«٧٢». ختم هذه السورة بذكر الشعراء الذين هم بخلاف ذلك ، واستثنى منهم من سلك سبيل أولئك ، وبين ما يمدح من الشعر ، ويدخل فى قوله . (سلاماً) . وما يذم منه ، ويدخل فى اللغو[2] .

« سورة النمل »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنها كالتتمة لها ، فى ذكر بقية القرون ، فزاد سبحانه فيها ذكر سليمان ، وداود ، وبسط فيها قصة لوط أبسط مما هى فى الشعراء[3] .

---

(١) بدىء بقصة موسى ، من قوله : (واذ نادى ربك موسى) (١٠) وما بعدها . ثم نوح فى قوله : (كذبت قوم نوح المرسلين (١٠٥) وما بعدها . ثم عاد من قوله : (كذبت عاد المرسلين (١٢٣) وهكذا على ترتيب آيات الفرقان .

(٢) وذلك من قوله : (والشعراء يتبعهم الغاوون) (٢٢٤) الى آخر السورة (٢٢٧) .

(٣) قصة داود وسليمان فى قوله : (ولقد آتينا داود وسليمان علما) الى (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (١٥ — ٤٤) . وقصة لوط فى قوله : (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة) الى (فساء صباح المنذرين) (٥٤ — ٥٨) .

وقول المؤلف : ان قصة لوط هنا أبسط منها فى الشعراء مخالف للواقع ، فهى فى الشعراء أطول ، ولكنها ذكرت فى النمل مع بيان أقصى ما وصلوا اليه من الانحلال الخلقى والانتكاس العقلى ، اذ عدوا طهارة لوط من الشذوذ الجنسى جريمة يستحق عليها النفى من البلاد . ولم يرد هذا التعليل فى الشعراء . فلعل البسط فى المعانى لا فى المقدار .

وقد روينا عن ابن عباس ، وجابر بن زيد ، فى ترتيب السور : أن الشعراء أنزلت ، ثم طه ، ثم القصص . ولذلك كان ترتيبها فى المصحف هكذا .

وأيضاً فقد وقع فيها : (وإذ قال موسى لأهله امكثوا إنى آنست ناراً) «٧» إلى آخره . وذلك تفصيل قوله فى الشعراء : (فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) «٢١» .

« ســورة القصص »

أقول : ظهر لى بعد الفكرة : أنه سبحانه لما حكى فى الشعراء قول فرعون لموسى. (ألم نربك فينا وليداً ولبثت فينا من عمرك سنين. وفعلت فعلتك التى فعلت) «١٨ ، ١٩» . إلى قول موسى . (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين) «٢١» . وقال فى طس النمل قول موسى لأهله : (إنى آنست ناراً)«٧» إلى آخره ، الذى هو فى الوقوع بعد الفرار، ولما كان على سبيل الإشارة والإجمال ، بسط فى هذه السورة ما أوجزه فى السورتين ، وفصل ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما .

فبدأ بشرح تربية فرعون له ، مصدراً بسبب ذلك : من علو رعون ، وذبح أبناء بنى إسرائيل الموجب لإلقاء موسى عند ولادته فى اليم خوفا عليه من الذبح ، وبسط القصة فى تربيته ، وما وقع فيها إلى كبره ، إلى السبب الذى من أجله قتل القبطى ، وهى الفعلة التى فعل ، إلى الهم بذلك عليه ، والموجب لفراره إلى مدين[1] ، إلى ما وقع له مع شعيب ، وتزوجه بابنته ، إلى أن سار

(١) مدين : مدينة قوم شعيب ، وهى تجاه تبوك ، على بحر القلزم ، وبها البئر التى استقى منها موسى لغنم شعيب (مراصد الاطلاع ١٢٤٦/٣) .

بأهله ، وآنس من جانب الطور ناراً فقال لأهله : (امكثوا إنى آنست نارا) ، إلى ما وقع له فيها من المناجاة لربه ، وبعثه إياه رسولا ، وما استتبع ذلك ، إلى آخر القصة .

فكانت السورة شارحة لما أجمل فى السورتين معاً ، على الترتيب .

وبذلك عرف وجه الحكمة فى تقديم (طس) على هذه ، وتأخيرها عن الشعراء ، فلله الحمد على ما ألهم .

« ســورة العنكبوت »

أقول . ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما أخبر فى أول السورة السابقة عن فرعون أنه : (علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) «٤». افتتح هذه السورة بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان ، بعذاب دون ماعذب به قوم فرعون بنى إسرائيل ، تسلية لهم ، بما وقع لمن قبلهم ، وحثاً لهم على الصبر ، ولذلك قال هنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم) «٣» . وهذه أيضاً من حكم تأخير القصص على (طس) .

وأيضاً . فلما كان فى خاتمة القصص الإشارة إلى هجرة النبى ﷺ[1] ، وفى خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله : (يا عبادى إن أرضى واسعة) «٥٦» ناسب تتاليهما .

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) (٨٥) الآية. والمعنى : لرادك الى مكة ، كما فى البخارى : ١٤٢/٦ . أى : كما خرجت منها . وبه قال ابن عباس ، ويحيى بن الجزار ، وسعيد بن جبير والضحاك ، واختاره ابن جرير (تفسير الطبرى : ٨٠/٢٠) .

أقول ظهر لى فى اتصالها بما قبلها . أنها ختمت بقوله . (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) «٦٩» . فافتتحت هذه بوعد من غلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم قبل ذلك من هزيمة[١].

هذا مع تآخيها بما قبلها فى المطلع ، فإن كلا منهما افتتح بـ (الم) غير معقب بذكر القرآن ، وهو خلاف القاعدة الخاصة بالمفتتح بالحروف المقطعة ، فإنها كلها عقبت بذكر الكتاب أو وصفه ، إلا هاتين السورتين وسورة القلم ، لنكتة بينتها فى «أسرار التنزيل»[٢].

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : (غلبت الروم فى أدنى الارض) الى قوله : (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله (٢ — ٥) .

(٢) ذكر المؤلف فى المقدمة : أنه ألف هذا الكتاب الموسوعى ، ولم نعثر عليه فى قوائم المخطوطات ، وأشار اليه فى الاتقان : ١/٢٨١ ، ٣/٣٦٩

والذى نراه فى سبب عدم افتتاح العنكبوت والروم بالكتاب أو وصفه والله أعلم : أنه لما تكرر الحديث عن الكتاب عقب الحروف المقطعة وأنه من عند الله ، وهدى للمتقين ، وتنزيل من رب العالمين ، كان لابد من ابتلاء المصدقين به حتى ينعزل المنافقون عن المؤمنين ويظهر الصادق فى ايمانه من الكاذب وهذا بمثابة الاختبار العملى لاستجابة الناس لامر الكتاب ، ولا سيما وان حملة تشكيك أثارها الكفار ضد الايمان . ولذا قال تعالى فى العنكبوت : (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم) الى أن قال : (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم — ١٠ — ١٢) الآية .

أما فى الروم فقد عقبت الحروف المقطعة باختبار ودليل على صدق وعد الكتاب الذى صدق الكتاب بالاخبار عن المستقبل وما يجرى فيه من وعد الروم بالنصر بعد الهزيمة . وهذا ابتلاء يميز الله به المؤمنين من المنافقين عند هذا الوعد وموقف الفريقين منه . ودليل على صدق الكتاب وأنه من الله حينما تحقق النصر بالفعل .

(وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون — ٦) .

أما سورة القلم فكانت ثالثة السور نزولا بمكة ، وكان الكفار قد أرجفوا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مجنون ، أو به مس من الجن ، فاقتضى الامر تسليته وتثبيت فؤاده ، وقدم هذه التسلية على الدفاع عن القرآن الذى جاء عقب ذلك فى الآيات (ولا تطع كل حلاف مهين) الى : (أساطير الاولين ١٠ — ١٥) .

« سورة لقمان »

أقول : ظهر لى فى اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة فى الافتتاح بـ (الم) . أن قوله تعالى هنا : (هدى ورحمة للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخره هم يوقنون) « ٣ ، ٤ » متعلق بقوله فى آخر سورة الروم : (وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) «٥٦» الآية . فهذا عين إيقانهم بالآخره ، وهم المحسنون الموقنون بما ذكر .

وأيضاً ففى كلتا السورتين جملة من الأديان وبدء الخلق[1] .

وذكر فى الروم : (فى روضة يحبرون)«١٥» . وقد فسر بالسماع[2] . وفى لقمان : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) . «٦» . وقد فسر بالغناء ، وآلات الملاهى[3] .

« سورة السجدة »

أقول . وجه اتصالها بما قبلها . أنها شرحت مفاتح الغيب الخمسة التى ذكرت فى خاتمة لقمان .

فقوله هنا : (ثم يعرج إليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) «٥».

---

(١) ذكرت جملة الاديان فى سورة الروم فى قوله تعالى : (أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الى قوله : (ولكن كانوا أنفسهم يظلمـون — (٩ ، ١٠) وقوله : (من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا — (٣٢) . وبدء الخلق فى قوله : (ومن آياته أن خلقكم من تراب (٢٠) الآية ، وما بعدها .
وذكرت جملة الاديان فى لقمان فى قوله : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث (٦) الآية . وقوله : (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير (٢٠) وما بعدها . وبدء الخلق فى قوله : (خلق السموات بغير عمد ترونها (١٠) الآية . وقوله : (ما خلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة (٨)٢ الآية .

(٢) هو قول يحيى بن أبى كثير . انظر (تفسير ابن كثير ٣١٣/٦) .

(٣) هو قول ابن مسعود سمعه منه أبو الصهباء البكرى (تفسير الطبرى ٣٩/٢١). وهو قول ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، والحسن . وانظر (صحيح الترمذى : ٥٠٢/٤ ، ٥٠٣ بتحفة الاحوذى) .

شرح لقوله هناك : (إن الله عنده علم الساعة) «٣٤». ولذلك عقب هنا بقوله : (عالم الغيب والشهادة) «٦».

وقوله : (أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز) «٢٧». شرح لقوله : (وينزل الغيث) «٣٢» .

وقوله : (الذى أحسن كل شىء خلقه) «٧» الآيات . شرح لقوله : (ويعلم مافى الأرحام) «٣٤» .

وقوله : (يدبر الأمر من السماء إلى الأرض) . و (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) «١٣». شرح لقوله : (وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً) «٣٤»

وقوله : (أئذا ضللنا فى الأرض) إلى قوله : (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم مرجعكم) «١١» شرح لقوله : (وماتدرى نفس بأى أرض تموت) «٣٤» . فلله الحمد على ما ألهم .

« سورة الأحزاب »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تشابه مطلع هذه ، ومقطع تلك ، فإن تلك ختمت بأمر النبى ﷺ بالإعراض عن الكافرين ، وانتظار عذابهم[1] ، [ومطلع هذه الأمر بتقوى الله ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، فصارت كالتتمة لما ختمت به تلك ، حتى كأنهما سورة واحدة] .

« سورة سبأ »

أقول : ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها ، وهو أن تلك لما ختمت بقوله : (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) «٣٧». افتتحت هذه بأن له مافى السموات ومافى الأرض[2]

---

(١) وذلك قوله تعالى : (فأعرض عنهم وانتظر انهم منتظرون (٣٠) .

(٢) وذلك قوله : (الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الارض وله الحمد فى الآخرة (١)الآية .

وهـذا الوصف لائق بذلك الحـكم ، فإن الملك العام ، والقدرة التامة ، يقتضيان ذلك .

وخاتمة سورة الأحزاب : (وكان الله غفوراً رحيماً) «٧٣» . وفاصلة الآية الثانية من مطلع سبأ : (وهو الرحيم الغفور) «٢» .

« ســــورة فاطـــــر »

أقول : مناسبة وضعها بعد سبأ . تآخيهما فى الافتتاح بالحمد ، مع تناسبهما فى المقدار .

وقال بعضهم : افتتاح سورة فاطر بالحمد مناسب لختام ما قبلها ، من قوله : (وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل) «٥٤» . كما قال : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) «٦ . ٤٥» . فهو نظير اتصال أول الأنعام بفصل القضاء المختتم به المائدة[1] .

« ســــورة يس »

أقول . ظهر لى وجه اتصالها بما قبلها : أنه لمـا ذكر فى سورة فاطر قوله : (وجاءكم النذير) «٣٧» . وقوله : (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير) «٤٢». والمراد به محمد ﷺ[2] وقد أعرضوا عنه وكذبوه ، فافتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم . وهذا وجه بين .

وفى فاطر : (وسخر الشمس والقمر) «١٣ ، ١٤» الآيتين . وفى يس « (والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) «٣٨ ، ٣٩» . وذلك أبسط وأوضح .

---

(١) آخر المائدة (هـذا يوم ينفع الصادقين صدقهم (١١٩) الآية . وأول الانعام : (الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور (١) الآية .

(٢) هو قول السدى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . انظر تفسير ابن كثير ٥٤٢/٦

وفى فاطر : (وترى الفلك فيه مواخر) «١٢» . وفى يس . (وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون)— «٤١—٤٣» . فزاد القصة بسطا .

« ســورة الصــافات »

أقول . هذه السورة بعد (يس) كالأعراف بعد الأنعام ، وكالشعراء بعد الفرقان ، فى تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكهم[1] ، كما أن يتنك السورتين تفصيل لمثل ذلك كما تقدم .

« ســـــورة ص »

أقول : هذه السورة بعد الصافات ، كطس بعد الشعراء ، وكطه والأنبياء بعد مريم ، وكيوسف بعد هود ، فى كونها متممة لها بذكر من بقى من الأنبياء، ممن لم يذكروا فيها، فإنه سبحانه ذكر فى الصافات . نوحا ، وإبراهيم ، والذبيح ، وموسى ، وهارون ولوطاً ، وإلياس ، ويونس ، وذكر هنا . داود ، وسليمان ، وأيوب ، وأشار إلى بقية من ذكر ، فهى بعدها أشبه شىء بالأنبياء وطس ، بعد مريم والشعراء .

« ســـورة الزمــر »

لا يخفى وجه اتصال أولها بآخر (ص) ، حيث قال فى (ص) . (إن هو إلا ذكر للعالمين) «٨٧» ثم قال هنا (تنزيل الكتاب من الله) «١» . فكأنه قيل : هذا الذكر تنزيل . وهذا تلاؤم شديد ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة لا لتأمت الآيتان كالآية الواحدة .

وقد ذكر الله تعالى فى آخر (ص) قصة خلق آدم[2] ، وذكر فى صدر هذه

---

(١) وردت الاشارة الى القرون المكذبة واهلاكهم فى يس بقوله تعالى : (ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون (١) . ونجـاء ذلك مفصلا فى الصـامات فى قوله : (بل عجبت ويسخرون (١٢) الى آخر السـورة .

(٢) خلق آدم فى ص قوله : (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين) الى (لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين (٧١ — ٨٥) .

قصة خلق زوجه ، وخلق الناس كلهم منه ، وذكر خلقهم في بطون أمهاتهم خلقا من بعد خلق ، ثم ذكر أنهم ميتون ، ثم ذكر وفاة النوم والموت ، ثم ذكر القيامة ، والحساب ، والجزاء ، والنار ، والجنة[1] . وقال : (وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين) «٧٥» .

فذكر أحوال الخلق ، من المبدأ إلى المعاد ، متصلا بخلق آدم المذكور فى السورة التى قبلها .

« ســــورة غافــــر »

أقول : وجه إيلاء الحواميم السبع[2] سورة الزمر : تآخى المطالع فى الافتتاح بتنزيل الكتاب . وفى مصحف أبى بن كعب : أول الزمر (حم)[3] ، وذلك مناسبة جليلة .

ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها فى الافتتاح بـ (حم) ، وبذكر الكتاب بعد حم ، وأنها مكية ، بل ورد فى الحديث أنها نزلت جملة[4] .

وفيها شبه من ترتيب ذوات (الر) الست[5] .

---

(١) بدأ ذكر هذه الموضوعات فى الزمر فى قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها (٦) الآية . وقوله : (انك ميت وانهم ميتون (٣٠) وقوله : (الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (٤٢) الآية . وقوله : (وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا (٧١) الآيات ، الى آخر السورة . ولذلك لو قدمت الزمر على ص ، لاختل النسق القرآنى الذى أحكمه الله تعالى .

(٢) الحواميم السبع هى : غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والاحقاف .

(٣) الاتقان : ٢٢٢/١ نقلا عن أبى أشتة فى المصاحف وفى الاصل : أن الزمر أولها حم فى مصحف ابن مسعود وأثبتنا ما فى الاتقان . والبرهان للزركشى : ١٤٠/١ .

(٤) لم نعثر على هذه الرواية ولم يذكرها السيوطى فى الاتقان ولا الزركشى فى البرهان ، ولا مصادر السنة الستة ، ولا مجمع الزوائد .

(٥) ذوات (الر) الست هى يونس ، وهود ، ويوسف ، والرعد ، (واولها : المر) . وابرهيم ، والحجر .

فانظر ثانية الحواميم وهى فصلت ، كيف شابهت ثانية ذوات (الر) هود فى تغيير الأسلوب فى وصف الكتاب . وأن فى هود : (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت) «٢» . وفى فصلت : (كتاب فصلت آياته) «٢». وفى سائر ذوات (الر) (تلك آيات الكتاب)[1] . وفى سائر الحواميم : (تنزيل الكتاب) أو (والكتاب)[2].

وروينا عن جابر بن زيد وابن عباس فى ترتيب نزول السور : أن الحواميم نزلت عقب الزمر ، وأنها نزلت متتاليات كترتيبها فى المصحف : المؤمن ، ثم السجدة ، ثم الشورى ، ثم الزخرف ، ثم الدخان ، ثم الجاثية ، ثم الأحقاف . ولم يتخللها نزول غيرها[3] . وتلك مناسبة جلية واضحة فى وضعها هكذا .

ثم ظهر لى لطيفة أخرى ، وهى : أنه فى كل ربع من أرباع القرآن توالت سبع سور مفتتحة بالحروف المقطعة . فهذه السبع مصدرة بـ (حم) . وسبع فى الربع الذى قبله ذوات (الر) الست متوالية ، و (المص) الأعراف ، فإنها متصلة بيونس على ما تقدمت الإشارة إليه . وافتتح أول القرآن بسورتين من ذلك ، وأول النصف الثانى بسورتين[4].

وقال الكرمانى فى «العجائب»[5] : ترتيب الحواميم السبع لما بينها من التشاكل الذى خصت به ، وهو : أن كل سورة منها استفتحت بالكتاب

---

(١) ولكن فى ابرهيم (كتاب انزلناه اليك (١) .

(٢) ولكن فى فصلت : (تنزيل من الرحمن الرحيم) . وفى الشورى (كذلك يوحى اليك والى الذين من قبلك الله (١) .

(٣) الاتقان : ٩٧/١ نقلا عن أبى بكر محمد بن الحارث بن أبيض فى جزئه المشهور .

(٤) كان حق الكلام (بسبع سور) فنصف القرآن بالآيات فى سورة الشعراء (الاتقان : ٢٤٣/١) . وعليه يكون نصف القرآن مفتتحا بالشعراء ، واولها (طسم ، والنمل ، طس) والقصص (طسم) والعنكبوت (الم) والروم (الم) ولقمان (الم) والسجدة (الم) .
واذا اعتبرنا النصف المعروف لنا فالسورتان هما (مريم ، وطه) .

(٥) هو كتاب « لباب التفسير وعجائب التأويل » لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى (خط) . ولم نعثر عليه مخطوطا ولا مطبوعا ، انظر (معجم الأدباء ١٢٥/١٩) . وقد ذكره الكرمانى فى (أسرار التكرار فى القرآن ص ١٨) .

أو وصفه ، مع تفاوت المقــادير فى الطول والقصر ، وتشاكل الكلام فى النظام . انتهى .

قلت : وانظر إلى مناسبة ترتيبها ، فإن مطلع غافر مناسب لمطلع الزمر ، ومطلع فصلت التى هى ثانية الحواميم مناسب لمطلع هود ، التى هى ثانية ذوات (الر) ومطلع الزخرف مؤاخ لمطلع الدخان ، وكذا مطلع الجاثية لمطلع الأحقاف[1]

« ســورة القتــال »

لا يخفى وجه ارتباط أولها بقوله فى آخر الأحقاف : (فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) «٣٥». واتصاله وتلاحمه ، بحيث أنه لو أسقطت البسملة منه ، لكان متصلا اتصالا واحداً لاتنافر فيه ، كالآية الواحدة ، آخذاً بعضه بعنق بعض[2]

« ســورة الفتح »

لايخفى وجه حسن وضعها هنا ، لأن الفتح بمعنى النصر ، مرتب على القتال ، وقد ورد فى الحديث : أنها مبينة لما يفعل به وبالمؤمنين ، بعد إبهامه فى قوله تعالى فى الأحقاف : (وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم)[3] «٩» . فكانت متصلة بسورة الأحقاف من هذه الجملة .

---

(١) مطلع الزمر (تنزيل الـكتاب من الله العزيز الحكيم) . ومطلع غافر (تنزيل الـكتاب من الله العزيز العليم) . ومطلع هـود (كتاب أحكمت آياته ثم فصلت). ومطلع فصـلت (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا) . وهكذا جميع المطالع التى ذكـرها المؤلف .

(٢) اول القتال : (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضـل أعمالهم (١) . وسـورة القتـال مع هـذا متممة لموضـوع سـورة الاحقاف قبلها : فالاحقـاف فيهـا الحـديث عن اعراض الكافرين فى مختلف العصـور ، وفيها دعوتهم الى الايمان بالتى هى أحسن ، وقد استنفذت السـورة وسـائل الاقناع العقلى ، وأثبتت عتـو أهـل الكفر وجحودهم ، فكانت سـورة القتال بمـا فيها من جهـاد ، وقواعد الحـرب ، وتشريعاته متفقة تمـاما مع نسـخ وسائل الدعـوة السلمية بآيـة السـيف .

(٣) هو قـول ابن عباس . رواه عنه على بن طلحة . ولذا قال عـكرمة والحسن وقتادة : ان آية الاحقاف منسوخة بآية الفتـح : (ليغفر لك الله ما تقـدم من ذنبـك) الآية . قالوا : ولمـا نزلت قال رجل من المسـلمين : فما هو فاعل بنـا ؟ فنزل : (ليدخل المؤمنين والمؤمنـات جنـات) الآية . انظر تفسـير ابن كثـير : ٧/٢٦٠ .

« ســورة الحجــرات »

لا يخفى تآخي هاتين السورتين [الفتح والحجرات] مع ما قبلهما ، لكونهما مدنيتين ، ومشتملتين على أحكام . فتلك فيها قتال الكفار ، وهذه فيها قتال البغاة[١] . وتلك ختمت بالذين آمنوا ، وهذه افتتحت بالذين آمنوا[٢] . وتلك تضمنت تشريفا له ﷺ ، خصوصاً مطلعها ، وهذه أيضاً فى مطلعها أنواع من التشريف له ﷺ[٣] .

« ســورة الذاريــات »

أقول : لما ختمت (ق) بذكر البعث ، واشتملت على ذكر الجزاء ، والجنة والنار ، وغير ذلك من أحوال القيامة ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ماتوعدون من ذلك لصادق ، وإن الدين — وهو الجزاء — لواقع .

ونظير ذلك : افتتاح المرسلات بذلك ، بعد ذكر الوعد والوعيد والجزاء فى سورة الإنسان[٤] .

« ســـورة الطــور »

أقول : وجه وضعها بعد الذاريات : تشابههما فى المطلع والمقطع ، فإن فى

---

(١) قتال الكفار فى الفتح معروف ، لانها فى فتح مكة ، وقتال البغاة فى الحجرات جاء فى قوله تعالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله (٩) الآية .

(٢) ختام الفتح : (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما (٢٩) وافتتاح الحجرات : (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله (١) الآية .

(٣) تشريفه صلى الله عليه وسلم فى الفتح فى قوله تعالى : (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك (٢) الآية . وتشريفه فى مطلع الحجرات : (لا تقدموا بين يدى الله ورسوله (١) . (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله (٣) الآية . (ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لا يعقلون (٤) .

(٤) الوعد والوعيد فى الانسان (انا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا (٤) وما بعدها وأقسم على صحة ذلك فى أول المرسلات (ان ما توعدون لواقع (٧).

مطلع كل منهما صفة حال المتقين بقوله : (إن المتقين فى جنات) «١٥ ، ١٧» . الآيات . وفى مقطع كل منهما صفة حال الكفار ، بقوله فى تلك : (فويل للذين كفروا) «٦٠». وفى هذه : (فالذين كفروا) «٤٢» [١] .

« ســــورة النجم »

أقول : وجه وضعها بعد الطور: أنها شديدة المناسبة لها ، فإن الطور ختمت بقوله : (وإدبار النجوم) «٤٩» . وافتتحت هــذه بقوله : (والنجم إذا هوى) «١» .

ووجه آخر : أن الطور ذكر فيها ذرية المؤمنين ، وأنهم تبع لآبائهم [٢] ، وهذه فيها ذكر ذرية اليهود [٣] فى قوله: (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض) «٣٢»

ولمــا قال هناك فى المؤمنين : (ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شىء) «٢١» . أى : ما نقصنا الآباء بما أعطينا البنين ، مع نفعهم بما عمل آباؤهم. قال هنا فى صفة الكفار أو بنى الكفار : (وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) «٣٩» خلاف ما ذكر فى المؤمنين الصغار .

وهذا وجه بين بديع فى المناسبة ، من وادى التضاد .

« ســورة القمــر »

أقول : لايخفى مافى توالى هاتين السورتين من حسن التناسق فى التسمية، لمــا بين النجم والقمر من الملابسة ، ونظيره توالى الشمس والليل والضحى ، وقبلها سورة الفجر .

---

(١) ومن المناســبة بين الطور والذاريات أنه تعــالى ذكر تكذيب الكافرين ورد عليهم فى ايجــاز فى الذاريات بقــوله : (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رســول الا قالوا ســاحر أو مجنون (٥٢) وما بعــدها . ثم فصــل ذلك فى الطور من قوله : (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩) الى آخر السورة (٤٩) .

(٢) وذلك فى قوله تعالى : (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان ألحقنا بهم ذريتهم (٢١)

(٣) بل فيها ذكر لذرية كل كافر حين اســتخرج الله ذرية آدم من صــلبه وقسمهم فريقين : فريقا للجنــة ، وفريقاللســعير . انظر (تفســير ابن كثير : ٤٣٧/٧) .

ووجه آخر ، وهو : أن هذه السورة بعد النجم كالأعراف بعد الأنعام ، وكالصافات بعد يس ، فى أنهـا تفصيل لأحوال الأمم المشار إلى إهلاكهم فى قوله هناك : (وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى . وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى . والمؤتفكة أهوى) «٥٠-٥٣»[١] .

« ســـورة الرحمن »

أقول : لمـا قال سبحانه وتعالى فى آخر القمر : (بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر) «٤٦» . ثم وصف حال المجرمين فى سقر ، وحال المتقين فى جنات ونهر ، فصل هذا الإجمال فى هذه السورة أتم تفصيل ، على الترتيب الوارد فى الإجمال .

فبـــدأ بوصف مرارة الساعة ، والإشارة إلى إدهائها ، ثم وصف النار وأهلها[٢] ، والجنة وأهلها[٣] ، ولذا قال فيهم : (ولمن خاف مقام ربه جنتان) «٤٦» . وذلك هو عين التقوى[٤] . ولم يقل : لمن آمن وأطاع ، أو نحوه ، لتتوافق الألفاظ فى التفصيل والمفصل .

وعرف بذلك أن هذه السورة بأسرها شرح لآخر السورة التى قبلها فلله الحمد على ما ألهم وفهَّم .

« ســـورة الواقعـــة »

اقول : هذه السورة متآخية مع سورة الرحمن فى أن كلا منهما فى وصف

---

(١) جـــاء تفصـــيل ذلك على الترتيب ، وزاد عليه ، فى ســـورة القمر ، من قـــوله : (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا) (فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر (٩ — ٤٢) .

(٢) وصـــف النار وأهلها جاء فى قوله فى ســـورة الرحمن سنفرغ لـــكم أيها الثقلان) الى (يطوفون بينها وبين حميم آن — (٣١ — ٤٤) .

(٣) ووصف الجنـــة وأهلها جاء فى قـــوله : ولمن خـــاف مقـــام ربه جنتان (٤٦) الى آخر الســـورة .

(٤) التقـــوى هى : خوف مقـــام الرب .وبذلك يتفق التفصيل هنـــا مع الاجمـــال فى قو : (ان المتقين فى جنات ونهر) فى ســـورة القمـــر .

القيامة ، والجنة والنار . وانظر إلى اتصال قوله هنا : (إذا وقعت الواقعة)«١» بقوله هناك : (فإذا انشقت السماء)«٣٧» . ولهذا اقتصر فى الرحمن على ذكر انشقاق السماء ، وفى الواقعة على ذكر رجّ الأرض[1] . فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة .

ولهذا عكس فى الترتيب . فذكر فى أول هذه السورة ماذكره فى آخر تلك ، وفى آخر هذه مافى أول تلك ، كما أشرت إليه فى سورة آل عمران مع سورة البقرة .

فافتتح الرحمن بذكر القرآن ، ثم ذكر الشمس والقمر ، ثم ذكر النبات ، ثم خلق الإنسان ، والجان من مارج من نار ، ثم صفة القيامة ، ثم صفة النار ، ثم صفة الجنة .

وابتدأ هذه بذكر القيامة ثم صفة الجنة ، ثم صفة النار ، ثم خلق الإنسان ، ثم النبات ، ثم الماء ، ثم النار ، ثم النجوم ، ولم يذكرها فى الرحمن ، كما لم يذكر هنا الشمس والقمر ، ثم ذكر القرآن .

فكانت هذه السورة كالمقابلة لتلك ، وكردّ العجز على الصدر .

« سورة الحديد »

قال بعضهم : وجه اتصالها بالواقعة : أنها قدمت بذكر التسبيح ، وتلك ختمت بالأمر به .

قلت : وتمامه : أن أول الحديد واقع موقع العلة للأمر به ، وكأنه قيل (فسبح باسم ربك العظيم) لأنه (سبح لله مافى السموات والأرض)

---

(١) وذلك فى قوله : (اذا رجت الارض رجا (٤) .

« سورة المجادلة »

أقول : لما كان فى مطلع الحديد ذكر صفاته الجليلة ، ومنها : الظاهر والباطن ، وقال : (يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم) «٤» . افتتح هذه بذكر أنه سمع قول المجادلة التى شكت إليه ﷺ . ولهذا قالت عائشة رضى الله عنها حين نزلت : «سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، إنى لفى ناحية البيت لأعرف ماتقول»[1]

وذكر بعد ذلك قوله : (ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) «٧» . وهو تفصيل لقوله : (وهو معكم أينما كنتم) «٤» .

وبذلك تعرف الحكمة فى الفصل بها بين الحديد والحشر ، مع تآخيهما فى الافتتاح بـ (سبح) .

« سورة الحشر »

آخر سورة المجادلة نزل فيمن قتل أقرباؤه من الصحابة يوم بدر[2] . وأول الحشر نازل فى غزوة بنى النضير[3] ، وهى عقبها ، وذلك نوع من المناسبة والربط .

وفى آخر تلك : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى)«٢١» . وفى أول هذه :

---

(١) أخرجه البخارى فى التوحيد : ١٤٤/٩ وابن ماجة فى المقدمة : ٦٧/١ والامام أحمد فى المسند : ٤٦/٦ . وابن جرير فى التفسير : ٥/٢٨ ، ٦ .

(٢) وهو قوله تعالى : (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه (٢٢) .
وقيل هم : أبو عبيدة قتل أباه يوم بدر ، وأبو بكر هم بقتل لده عبد الرحمن ، ومصعب بن عمير قتل أخاه عبيدا ، وعمر قتل قريبا له ، وحمزة وعلى وعبيدة بن الحارث قتلوا عقبة وشيبة والوليد بن عتبة (طبقات ابن سعد : ٣٠٠/١/٣) .

(٣) وذلك قوله : (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر (٢) .
وأخرج البخارى فى التفسير : ١٨٣/٦ ومسلم فى التفسير : ٢٤٥/٨ عن ابن عباس أو أول الحشر أنزلت فى بنى النضير .

(فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب) (٢) .

وفى آخر تلك ذكر من حاد الله ورسوله[١] ، وفى أول هذه ذكر من شاق الله ورسوله[٢] .

« سـورة الممتحنـة »

أقول : لما كانت سورة الحشر فى المعاهَدين من أهل الكتاب ، عقبت بهذه ، لاشتمالها على ذكر المعاهَدين من المشركين ، لأنها نزلت فى صلح الحديبية[٣]

ولما ذكر فى الحشر موالاة المؤمنين بعضهم بعضاً ، ثم موالاة الذين من أهل الكتاب ، افتتح هذه السورة بنهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشابهوا المنافقين فى ذلك ، وكرر ذلك وبسطه ، إلى أن ختم به ، فكانت فى غاية الاتصال ، ولذلك فصل بها بين الحشر والصف ، مع تآخيهما فى الافتتاح بـ (سبح) .

« سـورة الصف »

أقول : فى سورة الممتحنة ذكر الجهاد فى سبيل الله ، وبسطه فى هذه السورة أبلغ بسط .

« سـورة الجمعـة »

أقول : ظهر لى فى وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لما ذكر فى سورة

---

(١) وذلك قوله : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله (٢٢) الآية .

(٢) وذلك قوله : (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله (٤) الآية .

(٣) نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، لما أخبر المشركين بعزم النبى صلى الله عليه وسلم على فتح مكة بعد أن نقض المشركون صلح الحديبية . (البخارى فى التفسير : ١٨٥/٦ ، ١٨٦ ، والترمذى فى التفسير : ١٩٨/٩ – ٢٠٢ بتحفة الاحوذى ومسند الامام أحمد : ٧٩/١ ، ٨٠) .

الصف حال موسى مع قومه ، وأذاهم له ، ناعيا عليهم ذلك[1] ، ذكر فى هذه السورة حال الرسول ﷺ ، وفضل أمته ، تشريفاً لهم ، ليظهر فضل مابين الأمتين ، ولذا لم يعرض فيها لذكر اليهود .

وأيضاً لما ذكر هناك قول عيسى : (ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) «٦» . قال هنا : (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) «٢» . إشارة إلى أنه الذى بشر به عيسى . وهذا وجه حسن فى الربط .

وأيضاً لما ختم تلك السورة بالأمر بالجهاد وسماه تجارة ، ختم هذه بالأمر بالجمعة ، وأخبر أنها خير من التجارة الدنيوية .

وأيضاً : فتلك سورة الصف ، والصفوف تشرع فى موضعين : القتال ، والصلاة ، فناسب تعقيب سورة صف القتال بسورة صلاة تستلزم الصف ضرورة ، وهى الجمعة ، لأن الجماعة شرط فيها ، دون سائر الصلوات .

فهذه وجوه أربعة فتح الله بها .

« سورة المنافقون »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أن سورة الجمعة ذكر فيها المؤمنون ، وهذه ذكر فيها أضدادهم ، وهم المنافقون . ولهذا أخرج الطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الجمعة بسورة الجمعة يحرض بها المؤمنين ، وبسورة المنافقين يفزع بها المنافقين[2] .

---

(١) وذلك فى قوله : (واذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى (٥) الآية . وقال فى الصف عن بنى اسرائيل : انهم كذبوا عيسى ، وكذبوا على الله ، وأرادوا أن يطفئوا نور الله ، فى الآيات (٦ — ٩) . ثم ذكر هنا تعليل هذا التكذيب بالغباء ، وابطل حجتهم فى أنهم شعب الله المختار (٥ — ٧) .

(٢) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٩١/٢ عن أبى هريرة . وعزاه الى الطبرانى فى الاوسط . وقال : اسناده حسن . وفيه : (يقرع) . بالقاف والراء المهملة . وأخرج مثله مختصرا عن أبى عبيدة الخولانى وعزاه للطبرانى فى الكبير .

وتمام المناسبة أن السورة التى بعدها فيها ذكر المشركين ، والسورة التى قبل الجمعة فيها ذكر أهل الكتاب من اليهود والتصارى[١] . والتى قبلها وهى الممتحنة فيها ذكر المعاهدين من المشركين[٢] . والتى قبلها وهى الحشر فيها ذكر المعاهدين من أهل الكتاب[٣] ، فإنها نزلت فى بنى النضير حين نبذوا العهد وقوتلوا .

وبذلك اتضحت المناسبة فى ترتيب هذه السور الست هكذا ، لاشتمالها على أصناف الأمم ، وفى الفصل بين المسبحات بغيرها[٤] لأن إيلاء سورة المعاهدين من أهل الكتاب بسورة المعاهدين من المشركين أنسب من غيره . وإيلاء سورة المؤمنين بسورة المنافقين أنسب من غيره .

فظهر بذلك أن الفصل بين المسبحات التى هى نظائر لحكمة دقيقة من لدن حكيم خبير ، فلله الحمد على مافهم وألهم .

هذا وقد ورد عن ابن عباس فى ترتيب النزول : أن سوره التغابن نزلت عقب الجمعة[٥] ، وتقدم نزول سورة « المنافقون » فما فصل بينهما إلا لحكمة والله أعلم .

« سورة التغابن »

أقول : لما وقع فى آخر سورة المنافقون : (وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت) « ١٠ » . الآية . عقب بسورة التغابن ، لأنه قيل فى معناه : إن الإنسان يأتى يوم القيامة ، وقد جمع مالا ، ولم يعمل فيه خيراً ، فأخذه وارثه

---

(١) وذلك فى قوله : (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) الى (وذلك على الله يسير — (٥ — ٧) .

(٢) وذلك فى الآيات (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠) .

(٣) وذلك فى الآيتين (٨ ، ٩) .

(٤) يعنى الفصل بين الحشر ، وأولها : سبح . وبين التغابن وأولها : يسبح ، بالممتحنة والصف والجمعة والمنافقون .

(٥) الاتقان : ٩٧/١ .وهو عن جابر بن زيد أيضا . وجابر أحد علماء التابعين بالقرآن.

بسهولة ، من غير مشقة فى جمعه ، فأنفقه فى وجوه الخير ، فالجامع محاسب معذب مع تعبه فى جمعه ، والوارث منعَّم مثاب ، مع سهولة وصوله إليه . وذلك هو التغابن[1] .

فارتباطه بآخر السورة المذكورة فى غاية الوضوح . ولهـــذا قال هنا : (وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)«١٦».

وأيضاً ففى آخر تلك : (لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) «٩». وفى هذه : (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) «١٥» . وهذه الجملة كالتعليل لتلك الجملة ، ولذا ذكرت على ترتيبها[2].

وقال بعضهم : لمـا كانت سورة المنافقون رأس ثلاث وستين سورة ، أشير فيها إلى وفاة النبى ﷺ بقوله : (ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها) «١١» فانه مات على رأس ثلاث وستين سنة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن فى فقده ﷺ[3] .

« ســورة الطــلاق »

أقول : لما وقع فى سورة التغابن : (إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لـكم «١٤». وكانت عداوة الأزواج تفضى إلى الطلاق ، وعداوة الأولاد قد تفضى إلى القسوة ، وترك الإنفاق عليهم ، عقب ذلك بسورة فيها ذكر أحكام الطلاق، والإنفاق على الأولاد والمطلقات بسببهم .

« ســورة التحــريم »

أقول : هذه السورة متآخية مع التى قبلهـا بالافتتاح بخطاب النبى ﷺ ،

---

(١) تفسـير الكواشى : ٤/ ورقة ١١٢ أ . خط الازهـرية .
(٢) يعنى الاموال أولا ، والاولاد ثانيا ، وفى كلتا السورتين .
(٣) أورد السـيوطى هذا القـول فى الاتقان : ٣٠/٤ غير معزو كما هو ههنا ، كدليل على أنه ما من شىء الا ويمكن استخراجه من القرآن .

وتلك مشتملة على طلاق النساء، وهذه على تحريم الإيلاء. وبينهما من المناسبة مالا يخفى.

ولما كانت تلك فى خصام نساء الأمة، ذكر فى هذه خصومة نساء النبي ﷺ، إعظاماً لمنصبهن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردن بسورة خاصة، ولهذا ختمت بذكر امرأتين فى الجنة: آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران[1]

« سورة تبارك »

أقول: ظهر لى بعد الجهد: أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتى نوح ولوط الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله: (الذى خلق الموت والحياة) «٢». مراداً بهما الكفر والإيمان فى أحد الأقوال[2]، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، ولم ينفعهما اتصالهما بهذين النبيين الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، ولم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق فى كل من القضاء والقدر.

ووجه آخر، وهو أن « تبارك » متصل بقوله فى آخر الطلاق: (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) «١٢». فزاد ذلك بسطا فى هذه الآية: (الذى خلق سبع سماوات طباقا ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) إلى قوله: (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح) «٣ - ٥» وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كالتتمة لسورة الطلاق.

« سورة ن »

أقول: لما ذكر سبحانه فى آخر تبارك التهديد بتغوير الماء[3]، استظهر

---

(١) وهمـا فى قوله تعالى: (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون (١١ ، ١٢). — (١٠١).

(٢) السلمى. حقائق التفسير ورقة ٢٠١. خط.

(٣) ورد فى قوله تعالى: (قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (٣٠). وتغوير الماء: جفافه.

عليه فى هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان فى ليلة يطاف عليه فيها، وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق[1]. وإذا كان هذا فى الثمار وهى أجرام كثيفة، فالماء الذى هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال: (وهم نائمون. فأصبحت كالصريم) «١٩، ٢٠». وقال هناك: (إن أصبح ماؤكم غوراً) «٣٠». إشارة إلى أنه يسرى عليه فى ليلة كما سرى على الثمرة فى ليلة.

« سورة الحاقة »

أقول: لما وقع فى «ن» ذكر يوم القيامة مجملا فى قوله: (يوم يكشف عن ساق) «٤٢». الآية. شرح ذلك فى هذه السورة بناء على هذا اليوم، وشأنه العظيم[2].

« سورة سأل »

أقول: هذه السوره كالتتمة لسوره الحاقة فى بقية وصف يوم القيامة والنار[3].

وقال ابن عباس: إنها نزلت عقب سوره الحاقة[4]، وذلك أيضاً من وجوه المناسبة فى الوضع.

« سورة نوح »

أقول: أكثرماظهر فى وجه اتصالها بما قبلها بعد طول الفكر أنه سبحانه لما قال فى (سأل): (إنا لقادرون. على أن نبدل خيراً منهم) «٤١». عقبه

---

(١) جاء هذا فى سورة القلم بقوله تعالى: (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة) الى (انا كنا طاغين ١٧ ــ ٣١).

(٢) وذلك من أول السورة الى قوله: (لا يأكله الا الخاطئون (٣٧).

(٣) وذلك من أول السورة الى قوله: (وجمع فأوعى (١٨).

(٤) الاتقان: ٩٧/١.

بقصة قوم نوح ، المشتملة على إبادتهم عن آخرهم ، بحيث لم يبق منهم ديار وبدل خيراً منهم ، فوقع الاستدلال لما ختم به تبارك .

هذا مع تآخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعد به الكافرين[1] .

« ســـــورة الجن »

أقول : قد فكرت مدة فى وجه اتصالها بما قبلها ، فلم يظهر لى سوى أنه قال فى سورة نوح : (استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً) «١٠ ، ١١». وقال فى هذه السورة : (وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا) «١٦». وهذا وجه بين فى الارتباط[2] .

« ســورة المزمل »

أقول : لايخفى وجه اتصال أولها : (قم الليل)«٢» . بقوله فى آخر تلك : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه) «١٩» . وبقوله (وأن المساجد لله) «١٨»[3] .

« ســـــورة المدثـــر »

أقول هذه متآخية مع السوره التى قبلها فى الافتتاح بخطاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وصدر كليهما نازل فى قصة واحده .

---

(١) العذاب فى مطلع سال من أول السورة : سال سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع (١ ، ٢) . وفى سورة نوح : أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم (١).

(٢) ومن المناسبة بين السورتين : أنه تعالى ذكر فى نوح : (رب انهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا . (٢٢) . ومضى فى بيان كفرهم وضلالهم ، الى أن دعا عليهم نوح . ثم بين فى أول الجن : أنهم كالانس فى الايمان والكفر ، وأن لكفار الجن اتصالا بكفار الانس ، فقال تعالى : (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا (٦) . (وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا (١١) . (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون (١٤) الآيـــة . فكانت هذه السورة لبيان الصلة بين الجن والانس ، وبيان المقارنة بينهما .

(٣) ومن المناسبة أنه تعالى لما قال فى نهاية الجن : (عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا . الا من ارتضى من رسول (٢٦ ، ٢٧) . افتتح المزمل بذكر بداية ارسال النبى صلى الله عليه وسلم ، وما كلف به من شعائر العبودية والعبادة والدعوة. وذلك لان النبى صلى الله عليه وسلم بعث بين يدى الساعة كما جاء فى السنة ، وقد قال تعالى فى الجن : (وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون (٢٥) . فكأنه قال : هذه المزمل علم من أعلامها ، فهو الذى [illegible] الله ليظهره على غيبه ، وأنه بين يدى الســـاعة .

وقد ذكر عن ابن عباس فى ترتيب نزول السور : أن المدثر نزلت عقب المزمل . أخرجه ابن الضريس . وأخرجه غيره عن جابر بن زيد[1] .

« ســـورة القيـــامة »

أقول : لما قال سبحانه فى آخر المدثر . (كلا بل لايخافون الآخرة «٥٣» بعد ذكر الجنة والنار ، وكان عدم خوفهم إياها لإنكارهم البعث ، ذكر فى هذه السورة الدليل على البعث ، ووصف يوم القيامة ، وأهواله ، وأحواله ، ثم ذكر ما قبل ذلك من مبدأ الخلق . فذكرت الأحوال فى هـذه السورة على عكس ماهى فى الواقع .

« ســورة الانســان »

أقول : وجه اتصالها بسورة القيامة فى غاية الوضوح . فإنه تعالى ذكر فى آخـــر تلك مبدأ خلق الإنسان من نطفة ، ثم ذكر مثل ذلك فى مطلع هذه السورة ، مفتتحا بخلق آدم أبى البشر .

ولمـا ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا . (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) «٣٩» . ولما ذكر هناك خلقه منهما ، قال هنا . (فجعلناه سميعاً بصيراً)«٢» ، فعلق به غير ماعلق بالأول ، ثم رتب عليه هداية السبيل ، وتقسيمه إلى شاكر وكفور ، ثم أخذ فى جزاء كل .

ووجه آخر ، هو أنه لمـا وصف حال يوم القيامة فى تلك السورة ، ولم يصف فيها حال النار والجنة ، بل ذكرها على سبيل الإجمال ، فصلهما فى هذه

---

(١) وفيها كذلك زيادة اعلام بالساعة وأهوالها فى قوله : (فاذا نقر فى الناقور) الى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين (٨ — ٤٨).

السورة ، وأطنب فى وصف الجنة[1] ، وذلك كله شرح لقوله تعالى هناك (وجوه يومئذ ناضرة) — «٢٢» . وقوله هنا . (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً) « ٤ » . شرح لقوله هناك . (تظن أن يُفعل بها فاقره) « ٢٥ » .

وقد ذكر هناك . (كلا بل يحبون العاجلة . ويذرون الآخرة)«٢٠، ٢١» وذكر هنا فى هذه السورة . (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً ثقيلا) «٢٧» . وهذا من وجوه المناسبة[2] ..

« ســـورة المرســـلات »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه تعالى لمـا أخبر فى خاتمتها . أنه . (يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً) «٣١» ، افتتح هذه بالقسم على أن ما يوعدون واقع ، فكان ذلك تحقيقاً لمـا وعد به هناك المؤمنين ، وأوعد الظالمين .

ثم ذكر وقته وأشراطه بقوله : (فإذا النجوم طمست) «٨» إلى آخره .

ويحتمل أن تـكون الإشارة بما يوعدون إلى جميع ما تضمنته السورة من وعيد للـكافرين ، ووعد الأبرار[3] .

---

(١) تفصيل أحوال المؤمنين فى الجنة مفصل هنا من قوله تعالى : (ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجهـا كافورا) الى : (ان هذا كان لـكم جزاء وكان سـعيكم مشكورا (٥ ــ ٢٢) .

(٢) ومن وجوه المناسبة بين سورة الانسان وسـورة القيامة : أنه تعالى فصل فى القيامة أحوال الكافرين عند الموت ومايعانون من قهر وندم فى قوله : (كلا اذا بلغت التراقى . وقيل من راق) الى : (ثم أولى لك فأولى) ــ (٢٦ ــ ٣٥) وفى هذه السورة فصل أحوال المؤمنين فى حياتهم ، والتى استوجبوا بها النعيم الموصوف فى السورة . وذلك من قوله : (يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا) الى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا) ٧ ، ١١ .

(٣) وهناك مناسبة بين القيامة والانسان والمرسلات من ناحية خلق الانسان . ففى القيامة قال : (ألم يك نطفة من منى يمنى . ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والانثى) ٣٧ ــ ٣٩) فذكر بداية الخلق . وفى الانسان تدرج الى الحديث عن اتمام بناء الانسان حتى صار شديد الاسر (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم (٢٨) الآية ولمـا كانت قوة الانسان مظنـة كبريائه ، ذكره فى المرســلات بمهانة أصله : (ألم نخلقكم من ماء مهين) (٢٠) .
ومعانى السور الثلاث تدور حول الاصول . ولذلك قال فى المرسلات : (فان كان لكم كيد فكيدون) (٣٦) . اعلاما بقهره للعباد .

« ســــــورة عم »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : تناسبها معها في الجمل. ففي تلك : (ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين) «١٧ ، ١٨» . (ألم نخلقكم من ماء مهين) «٢٠» (ألم نجعل الأرض كفاتا) «٢٥». إلى آخره . وفي عم : (ألم نجعل الأرض مهاداً) «٦» إلى آخره . فذلك نظير تناسب جمل : ألم نشرح ، والضحى ، بقوله في الضحى : (ألم يجدك يتيما فآوى) «٦» إلى آخره . وقوله : (ألم نشرح لك صدرك) «١» . مع اشتراك هذه السورة والأربع قبلها في الاشتمال على وصف الجنة والنار ، ماعدا المدثر في الاشتمال على وصف يوم القيامة وأهواله ، وعلى ذكر بدء الخلق ، وإقامة الدليل على البعث .

وأيضاً في سورة المرسلات : (لأى يوم أجلت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل) «١٢ — ١٤» . وفي هذه السورة : (إن يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجاً) «١٧ ، ١٨» إلى آخره . فكأن هذه السورة شرح يوم الفصل المجمل ذكره في السورة التي قبلها[1] .

« ســــــورة عبس »

أقول : وجه وضعها عقب النازعات مع تآخيهما في المقطع ، لقوله هناك : (فإذا جاءت الطامة) «٣٤» . وقوله هنا : (فإذا جاءت الصاخة) «٣٣» . وهما من أسماء يوم القيامة[2] .

---

(١) لم يذكر المؤلف سورة النازعات ، ومناسبتها لما قبلها . ونرى والله أعلم : أنه طال وصف يوم القيامة في النبأ ، ثم ذكر في النازعات حجة من انكرها ، ورد عليها ، فقال : (يقولون أئنا لمردودون في الحافرة. أئذا كنا عظاما نخرة (١٠ — ١١) . وذكر ندامتهم على تفريطهم بقوله : (قالوا تلك اذن كرة خاسرة ١٢) . ثم أكد قدرته على احياء الموتى ، وأقام الدليل عليها في بقية السورة .

(٢) لم يذكر المؤلف سر الترتيب ونقول : ان الطامة من الطم ، من طمت البئر ، اذا كبستها ، وسميت به القيامة لانها تطم كل شيء . والصاخة من الصخ ، وهو الصوت الشديد ، وسميت به لانه بشدة صوتها يجثو لها الناس . وخصت النازعات بالطم لانه قبل الصخ ، فكانت عبس لاحقة للنازعات بطبعها . انظر (أسرار التكرار في القرآن ٢٠١) .

أقول : لما ذكر فى عبس : (فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه) «٣٤ ، ٣٥» الآيات . ذكر يوم القيامة كأنه رأى عين . وفى الحديث : « من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأى عين فليقرأ : (إذا الشمس كورت) . و (إذا السماء انفطرت) . و (إذا السماء انشقت)[1]» .

« سـورة الانفطـار »

أقول : قـد عرف مما ذكرت وجه وضعها هنا ، مع زيادة تآخيهما فى المقطع[2] .

« سـورة المطففين »

أقول : الفصل بهذه السورة بين الانفطار والانشقاق التى هى نظيرتها من خمسة أوجه : الافتتاح بـ (إذا السماء) ، والتخلص بـ (يا أيها الإنسان) ، وشرح حال يوم القيـامة ، ولهذا ضمت بالحديث السابق ، والتناسب فى المقدار ، وكونها مكية .

وهذه السورة مدنية ، ومفتتحها ومخلصها غير مالها ، لنكتة ألهمنيها الله . وذلك أن السور الأربع لما كانت فى صفة حال يوم القيامة ، ذكرت على ترتيب ما يقع فيه .

فغالب ماوقع فى التكوير ، وجميع ما وقع فى الانفطار ، وقع فى صدر يوم

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند ٧٢/٢ . والترمذى فى التفسير ٢٥٢/٩ ، ٢٥٣ بتحفة الاحوذى .

(٢) مقطع التكوير : (وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين) (٢٩) . ومقطع الانفطار : (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) (١٩) وهما بمعنى .

القيامة ، ثم بعد ذلك يكون الموقف الطويل ، ومقاساة العرق والأهوال ، فذكره فى هذه السورة بقوله : (يوم يقوم الناس لرب العالمين) « ٦ » . ولهذا ورد فى الحديث : « يقوم أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه »[١] .

ثم بعد ذلك تحصل الشفاعة العظمى ، فتنشر الكتب ، فأخذ باليمن ، وأخذ بالشمال ، وأخذ من وراء الظهر ، ثم بعد ذلك يقع الحساب .

هكذا وردت بهذا الترتيب الأحاديث ، فناسب تأخير سورة الانشقاق التى فيها إتيان الكتب والحساب[٢] ، عن السورة التى قبلها ، والتى فيها ذكر الموقف عن التى فيها مبادىء يوم القيامة .

ووجه آخر ، وهو : أنه جل جلاله لما قال فى الانفطار : (وإن عليكم لحافظين . كراماً كاتبين) — « ١١ ، ١٢ » . وذلك فى الدنيا ، ذكر فى هذه السورة حال ما يكتبه الحافظان ، وهو : كتاب مرقوم جعل فى عليين ، أوفى سجين ، وذلك أيضاً فى الدنيا ، لكنه عقب الكتابه ، إما فى يومه ، أو بعد الموت فى البرزخ كما فى الآثار . فهذه حالة ثانية فى الكتاب ذكرت فى السورة الثانية .

وله حالة ثالثة متأخرة فيها ، وهى أخذ صاحبه باليمين أو غيرها ، وذلك يوم القيامة ، فناسب تأخير السورة التى فيها ذلك ، عن السورة التى فيها الحالة الثانية ، وهى الانشقاق ، فلله الحمد على ما من بالفهم لأسرار كتابه .

---

(١) أخرجه البخارى فى التفسير ٢٠٧/٦ عن ابن عمر . وأحمد فى المسند مع اختلاف فى اللفظ ١٣/٢ ، ١٩ ، وعلى المطابقة ٣١/٢ .

(٢) وذلك فى قوله : (فأما من أوتى كتابه بيمينه) الى : (ويصلى سعيرا) (٧ — ١٢) .

ثم رأيت الإمام فخر الدين قال فى سورة المطففين أيضاً : اتصال أولها بآخر ماقبلها ظاهر ، لأنه تعالى بين هناك أن يوم القيامة من صفته : (لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله) . وذلك يقتضى تهديداً عظيما للعصاة ، فلهذا أتبعه بقوله : (ويل للمطففين) الآيات .

« ســورة الانشــقاق »

قد استوفى الكلام فيها فى سورة المطففين .

« سورة البروج والطارق »

أقول : هما متآخيتان فقرنتا ، وقدمت الأولى لطولها ، وذكرا بعد الانشقاق للمؤاخاة فى الافتتاح بذكر السماء ، ولهذا ورد فى الحديث ذكر السموات مراداً بها السور الأربع[1] ، كما قيل : المسبحات .

« ســـورة الأعلى »

أقول : فى سورة الطارق ذكر خلق [النبات] والإنسان فى قوله : (والأرض ذات الصدع)«١٢» [وقوله : (فلينظر الإنسان مم خلق) إلى (إنه على رجعه لقادر) — «٦—٨»] . وذكره فى هذه السورة فى قوله : (خلق فسوى)«٢» . وقوله فى النبات : (والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) «٣ ، ٤» . وقصة النبات فى هذه السورة أبسط ، كما أن قصة الإنسان هناك أبسط . نعم ، مافى هذه السورة أعم ، من جهة شموله للإنسان وسائر المخلوقات .

« ســورة الغاشــية »

أقول : لما أشار سبحانه فى سورة الأعلى بقوله : (سيذكر من يخشى .

---

(١) أخرجه الامام أحمد فى المسند ٣٢٧/٢ عن ابى هريرة ان النبى صلى الله عليه وسلم امر أن يقرأ بالسموات فى العشاء . يعنى : السور الاربع المفتتحة بذكر السماء .

ويتجنبها الأشقى . الذى يصلى النار الكبرى) إلى قوله : (والآخرة خير وأبقى) «١٠—١٧» . إلى المؤمن والكافر ، والنار والجنة إجمالا ، فصل ذلك فى هذه السورة . فبسط صفة النار والجنة مستندة إلى أهل كل منهما ، على نمط ما هنالك ، ولذا قال [هنا] : (عاملة ناصبة) «٣» . فى مقابل : (الأشقى) «١٠» [هناك] وقال [هنا] (تصلى ناراً حامية) « ٤ » إلى : (لا يسمن ولا يغنى من جوع) «٧» . فى مقابلة : (يصلى النار الكبرى) «١٢» [هناك] . ولما قال [هناك] فى الآخرة : (خير وأبقى) «١٦» . بسط [هنا] صفة الجنة أكثر من صفة النار ، تحقيقاً لمعنى الخيرية .

« سورة الفجر »

أقول : لم يظهر لى من وجه ارتباطها سوى أن أولها كالإقسام على صحة ماختم به السورة التى قبلها ، من قوله جل جلاله : (إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم) «٢٥—٢٦» . وعلى ما تضمنه من الوعد والوعيد . كما أن أول الذاريات قسم على تحقيق مافى (ق) ، وأول المرسلات قسم على تحقيق مافى (عم)

هذا مع أن جملة (ألم تر كيف فعل ربك) «٦» هنا ، مشابهة لجملة (أفلا ينظرون) «١٧» هناك[1] .

---

(١) بل هناك وجوه ارتباط أوضح مما ذكر المؤلف . وذلك : أنه تعالى ذكر فى الغاشية صفة النار والجنة مفصلة على ترتيب ما ذكر فى سورة الاعلى . ثم زاد الامر تفصيلا فى الفجر بذكر أسباب عذاب أهل النار ، فضرب لذلك مثلا بقوم عاد ، وقوم فرعون ، فى قوله : (ألم تر كيف فعل ربك بعاد) الى (أن ربك لبالمرصاد) (٦ — ١٤) . ثم ذكر بعض عناصر طغيانهم فى قوله : (كلا بل لا تكرمون اليتيم) (١٧) وما بعدها : فكانت هذه السورة بمثابة اقامة الحجة عليهم .

وكذلك جاء فى الغاشية : (إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر (٢١—٢٢) . ثم ذكر فى الفجر مادة تذكير من كان قبلهم من الكفار ، ثم أخذ الله اياهم فى الدنيا ، وانه سيعذبهم فى الآخرة ، وأن الندم لن ينفعهم شيئا ، فقال : (يومئذ يتذكر الانسان وانى له الذكرى . يقول يا ليتنى قدمت لحياتى (٢٣ ، ٢٤) .

أقول : وجه اتصالها بما قبلها . أنه لما ذم فيها من أحب المال ، وأ كثر التراث ، ولم يحض على طعام المسكين ، ذ كر فى هذه السورة الخصال التى تطلب من صاحب المال ، من فك الرقبة ، والإطعام فى يوم ذى مسغبة[1] .

« سورة الشمس والليل والضحى »

أقول : هذه الثلاثة حسنة التناسق جداً ، لما فى مطالعها من المناسبة ، لما بين الشمس والليل والضحى من الملابسة ، ومنها سورة الفجر ، لـكن فصلت بسورة البلد لنـكتة أهم ، كما فصل بين الانفطار والانشقاق وبين المسبحات ، لأن مراعاة التناسب بالأسماء والفواتح وترتيب النزول ، إنما يكون حيث لايعارضها ما هو أقوى وآ كد فى المناسبة .

ثم إن سورة الشمس ظاهرة الاتصال بسورة البلد ، فإنه سبحانه لما ختمها بذ كر أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، أراد الفريقين فى سورة الشمس على سبيل الفذلكة . فقوله [فى الشمس] . (قد أفلح من ز كاها)«٩» . هم أصحاب الميمنة فى سورة البلد ، وقوله : (وقد خاب من دساها)«١٠» [فى الشمس] ، هم أصحاب المشأمة فى سورة البلد ، فكانت هذه السورة فذلـكة تفصيل تلك السورة : ولهذا قال الإمام : المقصود من هذه السورة . الترغيب فى الطاعات ، والتحذير من المعاصى .

ونزيد فى سورة الليل : أنها تفصيل إجمال سورة الشمس ، فقوله . (فأما

---

(١) ومن التناسب أيضا بين هذه السور وسابقتها : انه تعالى لما ذكر فى تلك ابتلاء الانسان بضيق الرزق بسبب عدم اطعام المسكين ، وعدم اكرام اليتيم ، ونعى عليه حب المـال ، ذكر فى هذه ندمه يوم القيامة ، وتذكره حبس المـال ، وذلك حين يقول : : (يا ليتنى قدمت لحياتى(٢٤) .

من أعطى واتقى) «٥» وما بعدها ، تفصيل (قد أفلح من زكاها) . وقوله : (وأما من بخل واستغنى) «٨» الآيات ، تفصيل قوله . (وقد خاب من دساها).

ونزيد فى سورة الضحى : أنها متصلة بسورة الليل من وجهين . فإن فيها . (وإن لنا للآخرة والأولى) «١٣» . وفى الضحى : (وللآخرة خير لك من الأولى) «٤» . وفى الليل . (ولسوف يرضى) «٢١» . وفى الضحى . (ولسوف يعطيك ربك فترضى)«٥» .

ولما كانت سورة الضحى نازلة فى شأنه ﷺ ، افتتحت بالضحى ، الذى هو نور . ولما كانت سورة الليل سورة أبى بكر ، يعنى : ماعدا قصة البخيل[1]، وكانت سورة الضحى سورة محمد ، عقب بها ، ولم يجعل بينهما واسطة ، ليعلم ألا واسطة بين محمد وأبى بكر .

« ســورة ألم نشرح »

أقول : هى شديدة الاتصال بسورة الضحى، لتناسبهما فى الجمل . ولهذا ذهب بعض السلف إلى أنهما سورة واحدة بلا بسملة بينهما[2] . قال الإمام : والذى دعاهم إلى ذلك هو : أن قوله : (ألم نشرح) كالعطف على : (ألم يجدك يتيما فآوى)«٦» [فى الضحى][3].

قلت : وفى حديث الإسراء أن الله تعالى قال : « يا محمد ، ألم أجدك

---

(١) الذى نزل فى أبى بكر من هذه السورة قوله تعالى : (فأما من أعطى واتقى) الى (فسنيسره لليسرى) . أخرج ابن جرير أنه كان يعتق على الاسلام بمكة عجائز ونساء اذا أسلمن فلامه أبوه ، فنزلت(تفسير ابن‌جرير الطبرى: ١٤٢/٣٠)

(٢) نقل هذا القول فخر الدين الرازى فى تفسيره عن طاووس وعمر بن عبد العزيز (تفسير سورة الضحى) .

(٣) هى كالعطف فى المعنى لا فى اللفظ . ثم ان هذه السورة شرح لسابقتها ، فشرح الصدر هناك ، مفصل هنا ببيان عناصره وأسبابه التى هى : الايواء بعد اليتم ، والهداية بعد الضلال ، والغنى بعد العيلة . فتلك كلها من عوامل انشراح الصدر للايمان ، لا سيما وقد جاءت بعد وعد بالعطاء حتى يرضى الرسول.

يتيما فآويت ، وضالا فهديت ، وعائلا فأغنيت ، وشرحت لك صدرك ، وحططت عنك وزرك ، ورفعت لك ذكرك ، فلا أذكر إلا ذكرت » الحديث. أخرجه ابن أبى حاتم[1] . وفى هذا أوفى دليل على اتصال السورتين معنى .

« ســــــورة التين »

أقول : لمـا تقدم فى سورة الشمس : (ونفس وما سواها) «٣» . فصل فى هذه السورة بقوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) « ٤ ، ٥ » إلى آخره .

وأخرت هذه السورة لتقدم ماهو أنسب بالتقديم من السور الثلاث[2] ، واتصالها بسورة البلد لقوله : (وهذا البلد الأمين) «٣» . وأخرت لتقدم ماهو أولى بالمناسبة مع سورة الفجر[3] .

لطيفـــة :

نقل الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى فى «لطائف المنن» عن الشيخ أبى العباس المرسى ، قال قرأت مرة : (والتين والزيتون) إلى أن انتهيت إلى قوله : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين) «٤،٥» . ففكرت فى معنى هذه الآية ، فألهمنى الله أن معناها : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحا وعقلا ، ثم رددناه أسفل سافلين نفساً وهوى[4] .

قلت : فظهر من هذه المناسبة وضعها بعد (ألم نشرح) . فإن تلك أخبر

---

(١) الحديث ذكره ابن كثير فى تفسيـــره عن ابن أبى حاتم : ٤٥٢/٨

(٢) يعنى (الليل ، والضحى ، وألم نشرح) . فان مناسباتها متوالية هكذا أهم من تقـــديم التين بعد الشمس .

(٣) يعنى أن اتصـــال سورة الشمس بالبلد ، واتصال البلد بالفجر ، أولى من اتصال التين بالبلد لمجرد ذكر (البلد فى كليهما) .

(٤) لطائف المنن ص ١١٨ . المطبعـــة الفخرية ١٩٧٢ القـــاهرة .

فيها عن شرح صدر النبي ﷺ ، وذلك يستدعي كمال عقله وروحه ، فكلاهما في القلب الذي محله الصدر ، وعن خلاصه من الوزر الذي ينشأ من النفس والهوى ، وهو معصوم منهما ، وعن رفع الذكر ، حيث نزه مقامه عن كل موهم

فلما كانت هذه السورة في هذا العلَم الفرد من الإنسان ، أعقبها بسورة مشتملة على بقية الأناسي ، وذكر ما خامرهم في متابعة النفس والهوى .

« ســـــورة العلق »

أقول : لمـا تقدم في سورة التين بيان خلق الإنسان في أحسن تقويم ، بين هنا أنه تعالى : (خلق الإنسان من علق) «٢» . وذلك ظاهر الاتصال ، فالأول بيان العلة الصورية ، وهذا بيان العلة المادية[١] .

« ســـورة القـــدر »

قال الخطابي : لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ على القرآن ، ووضعوا سورة القدر عقب العلق ، استدلوا بذلك على أن المراد بهاء الكناية في قوله : (إنا أنزلناه في ليلة القدر) «١». الإشارة إلى قوله . (اقرأ)[٢].

قال القاضي أبو بكر بن العربي . وهذا بديع جداً[٣] .

---

(١) أقول : ومن المناسبة بين التين والعـلق .
(أ) أنه تعالى لمـا قال في آخر التين : (أليس الله بأحـكم الحاكمين) .. بين في أول العلق انه تعالى مصدر علم العباد بحكمته . فبين أنه (علم بالقلم علم الانســان ما لم يعلم) . وصدر ذلك بالامر بالقراءة ، واستفتاحها باسمه دائما ، لتكون للانســان عونا على كمال العلم بحكمة احـكم الحاكمين .
(ب) لمـا ذكر في التين خلق الانسان في أحسن تقـويم ، ورده الى أسـفل ســافلين . بين في العلق تفصـيل الحالين وأسبابهما من أول قوله : (كلا ان الانســان ليطغى أن رآه استغنى (٦ ، ٧) . الى (الم يعلم بأن الله يرى (١٤) .

(٢) الخطابي هو : أحمد بن محمد بن ابراهيم ابو سليمان . له شرح سنن ابى داود وبيان اعجــاز القرآن . توفى سنة ٣٨٨ (وفيات الاعيان : ١/١٦٦) . والنقـل من (البرهان لابى جعفر بن الزبير) كمـا قال السيوطى (الاتقان : ٣/٣٨٣) .

(٣) أقول : وهناك مناسبة أخرى خفية . هى أنه تعالى لمـا ختم العلق بالامر بالسجود والاقتراب من الله ، وكان المقصود من الاقتراب : التعرض للرحمة الفائضة من الله على المصلى ، والصلاة لا تكون الا بقرآن ، ذكر في أول هذه السورة أن القرآن رحمـة في ذاته ، ورحمة في الزمان الذى نزل فيه وهو ليلة القدر التى تتنزل الملائـكة فيهـا بالروح والسلام على الكون .

« ســـورة لم يــكن »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لما قبلها ، كأنه لما قال سبحانه : (إنا أنزلناه) «١». قيل : لم أنزل ؟ فقيل . لأنه لم يكن الذين كفروا منفكين عن كفرهم ، حتى تأتيهم البينة ، وهو رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة . وذلك هو المنزّل .

وقد ثبتت الأحاديث بأنه كان فى هذه السورة قرآن نُسخ رسمه وهو : إنا أنزلنا المال لإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ولو أن لابن آدم واديا لابتغى إليه الثانى ، ولو أن له الثانى لابتغى إليه الثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب[١] .

وبذلك تشتد المناسبة بين هذه السورة وبين ما قبلها ، حيث ذكر هناك إنزال القرآن ، وهنا إنزال المال ، وتكون السورتان تعليلا لما تضمنته سورة اقرأ ، لأن أولها ذكر العلم ، وفى أثنائها ذكر المال . فكأنه قيل : إنا لم ننزل المال للطغيان والاستطالة والفخر ، بل ليستعان به على تقوانا ، وإقامة الصلاة ، وإتياء الزكاة[٢] .

« ســـــورة الزلزلـــة »

أقول : لما ذكر فى آخر (لم يكن) أن جزاء الكافرين جهنم ، وجزاء المؤمنين جنات ، فكأنه قيل : متى يكون ذلك ؟ فقيل : (إذا زلزلت الأرض زلزالها) «١» . أى [حين] تكون زلزلة الأرض ، إلى آخره .

---

(١) أخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد : ١٤٠/٧ عن أبى واقد الليثى . قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله عز وجل قال : انا أنزلنا المال ... الحديث . وعزاه الى أحمد والطبرانى . وقال : رجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) العلم فى قوله تعالى : (علم الانسان ما لم يعلم) . والمال فى قوله : (ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى) .

هكذا ظهر لى ، ثم لما راجعت تفسير الإمام الرازى ، ورأيته ذكر نحوه حمدت الله كثيراً . وعبارته : ذكروا فى مناسبة هذه السورة لما قبلها وجوها منها : أنه تعالى لما قال : (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن) «٨» . فكأن المكلف قال : ومتى يكون ذلك يارب ؟ فقال : (إذا زلزلت الأرض) .

ومنها : أنه لما ذكر فيها وعيد الكافرين ، ووعد المؤمنين ، أراد أن يزيد فى وعيد الكافرين فقال : (إذا زلزلت الأرض) . ونظيره : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . ثم ذكرما للطائفتين فقال : (فأما الذين اسودت وجوههم) إلى آخره . ثم جمع بينهما هنا فى آخر السورة بذكر الذى يعمل الخير والشر . انتهى.

« سورة العاديات »

أقول : لايخفى ما بين قوله فى الزلزلة : (وأخرجت الأرض أثقالها)«٢» وقوله فى هذه السورة : (إذا بعثر مافى القبور)«٩» . من المناسبة والعلاقة [1].

« سورة القارعة »

قال الإمام : لما ختم الله سبحانه السورة السابقة بقوله : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) «١١» . فكأنه قيل : وماذاك ؟ فقال : هى القارعة . قال : وتقديره : ستأتيك القارعة على ما أخبرت عنه بقولى : (إذا بعثر مافى القبور) «٩» .

---

(١) أقول : وهناك مناسبة أخرى . هى : بيان الاصل الذى يضل به الانسان أو يهتدى . فلما ذكر فى آخر الزلزلة جزاء الانسان على الخير والشر . بين هنا أن الانسان بطبعه يحب الخير ، وحبه للخير اما للدنيا وهو الشر ، واما للاخرة وهو حقيقة الخير . فهذا الحب هو الذى يوجه الاعمال . ثم ذكر الانسان بيوم يكشف فيه عما فى القلوب من نوايا خفية : (افلا يعلم اذا بعثر ما فى القبور. وحصل ما فى الصدور) الى آخر السورة . وقد زاد الامر تفصيلا فى السور التالية .

« ســورة التكاثــر »

أقول : هذه السورة واقعة موقع العلة لخاتمة ما قبلها ، كأنه لما قال هناك: (فأمه هاوية) «٩» . قيل : لم ذلك ؟ فقال : لأنكم (ألهاكم التكاثر) «١» . فاشتغلتم بدنياكم ، وملأتم موازينكم بالحطام ، فخفت موازينكم بالآثام ، ولهذا عقبها بسورة العصر ، المشتملة على أن الإنسان فى خُسر ، بيان لخسارة تجارة الدنيا ، وربح تجارة الآخرة ، ولهذا عقبها بسورة الهمزة ، المتوعَّد فيها مَن جمع مالا وعدّده ، يحسب أن ماله أخلده . فانظر إلى تلاحم هذه السور الأربع ، وحسن اتساقها [1] .

« ســورة الفيــل »

ظهر لى فى وجه اتصالها بعد الفكرة : أنه تعالى لما ذكر حال الهمزة اللمزة ، الذى جمع مالا وعدّده ، وتعزز بماله وتقوّى ، عقب ذلك بذكر قصة أصحاب الفيل ، الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر أموالا وعتُوا ، وقد جعل كيدهم فى تضليل ، وأهلكهم بأصغر الطير وأضعفه ، وجعلهم كعصف مأكول ، ولم يغن عنهم مالهم ولا عزهم ولا شوكتهم ، ولا فيلهم شيئاً .

فمن كان قصارى تعزُّزه وتقوِّيه بالمال ، وهَمز الناس بلسانه ، أقرب إلى الهلاك ، وأدنى إلى الذلة والمهانة .

« ســـورة قريش »

هى شديدة الاتصال بما قبلها ، لتعلق الجار والمجرور فى أولها بالفعل فى آخر

(١) ومن المناسبة كذلك : التصريح هنا بوزن الاعمال التى أجملها فى الزلزلة وبين أصلها فى العاديات .

تلك . ولهذا كانتا فى مصحف أبى سورة واحدة[1].

« سورة الماعون »

أقول : لما ذكر تعالى فى سورة قريش : (الذى أطعمهم من جوع)«٤». ذكر هنا ذم من لم يحض على طعام المسكين .

ولما قال هناك : (فليعبدوا رب هذا البيت)«٣» . ذكر هنا من سها عن صلاته[2] .

« سورة الكوثر »

قال الإمام فخر الدين : هى كالمقابلة للتى قبلها ، لأن السابقة وصف الله سبحانه فيها المنافقين بأربعة أمور : البخل ، وترك الصلاة ، والرياء فيها ، ومنع الزكاة . وذكر فى هذه السورة فى مقابلة البخل : (إنا أعطيناك الكوثر) «١». أى : الخير الكثير . وفى مقابلة ترك الصلاة . (فصلّ)«٢» . أى . دُم عليها . وفى مقابلة الرياء : (لربك) «٢» . أى : لرضاه ، لا للناس . وفى مقابلة منع الماعون : (وانحر)«٢». وأراد به : التصدق بلحوم الأضاحى . قال : فاعتبر هذه المناسبة العجيبة .

---

(١) نقله السيوطى عن السخاوى فى كتاب جمال القراء عن جعفر الصادق ، وأبى نهيك . وقال : ويرده ما أخرجه الحاكم والطبرانى من حديث أم هانىء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فضل الله قريشا بسبع ... وان الله انزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم : لايلاف قريش . ومع ذلك فصلة قريش بالفيل قائمة . فكأن ما فعل الله بأصحاب الفيل كن لايلاف قريش ، ولتأمين طريق تجارتهم فى رحلتى الشتاء والصيف . وقد كان من أهداف أبرهة السياسية حرمان قريش من تجارتهم هذه .

(٢) أقول : ان السورة بكاملها تسير مع الخط الذى يبدأ من سورة الزلزلة كما قلنا . فهى ترشد الى الطريق السليم لاستعمال المال ، وبذله فى عون اليتامى ، واطعام المساكين ، وذلك عن طريق التحذير من اهمال هذا الطريق ، وتسمية مانع العون مكذبا بالدين .

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه تعالى لمـا قال : (فصل لربك) أمره أن يخاطب الكافرين بأنه لايعبد إلا ربه ، ولا يعبد ما يعبدون ، وبالغ فى ذلك فكرر ، وانفصل منهم على أن لهم دينهم وله دينه .

« ســـــــورة النصر »

أقول : وجه اتصالها بما قبلها : أنه قال فى آخر ماقبلها : (ولى دين) . فكان فيه إشعـار بأنه خلص له دينه ، وسلم من شوائب الكفار والمخالفين ، فعقب ببيان وقت ذلك ، وهو مجىء الفتح والنصر ، فإن الناس حين دخلوا فى دين الله أفواجاً ، فقدتم الأمر ، وذهب الكفر ، وخلص دين الإسلام ممن كان يناوئه ، ولذلك كانت السورة إشارة إلى وفاته ﷺ [1] .

وقال الإمام فخر الدين : كأنه تعالى يقول : لمـا أمرتك فى السورة المتقدمة بمجاهدة جميع الكفار ، بالتبرى منهم ، وإبطال دينهم ، جزيتك على ذلك بالنصر والفتح ، وتكثير الأتباع .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لمـا أعطاه الكوثر ، وهو : الخير الكثير ، ناسب تحميله مشقاته وتكاليفه ، فعقبها بمجاهدة الكفار ، والتبرى منهم . فلما امتثل ذلك أعقبه بالبشارة بالنصر والفتح ، وإقبال الناس أفواجاً إلى دينه ، وأشار إلى دنوّ أجله ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال .

• توقع زوالا إذا قيل تم •

---

(١) أخرج البخارى هذا المعنى فى التفسير : ٦/٢٢٠ ، ٢٢١ . عن ابن عباس . والامام أحمد فى المسند : ١/٢١٧ ، ٣٤٤ ، ٣٥٦ . وابن جرير فى التفسير : ٣٠/٢١٥ .

قال الإمام : وجه اتصالها بما قبلها : أنه لما قال : (لكم دينكم ولى دين) «٦». فكأنه قيل : إلهى ، وماجزائى ؟ فقال الله له : النصر والفتح . فقال : وماجزاء عمى الذى دعانى إلى عبادة الأصنام ؟ فقال : (تبت يدا أبى لهب) «١» الآيات .

وقدم الوعد على الوعيد ليكون النصر معللا بقوله : (ولى دين) . ويكون الوعيد راجعاً إلى قوله : (لكم دينكم) . على حد قوله : (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم) .

قال : فتأمل فى هذه المجانسة الحافلة بين هذه السور ، مع أن سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة[1] ، والكافرون وتبت من أوائل ما نزل بمكة[2] ، ليعلم أن ترتيب هذه السور من الله ، وبأمره .

قال : ووجه آخر ، وهو : أنه لما قال . (لكم دينكم ولى دين) كأنه قيـــل : يا إلهى ، ما جزاء المطيع ؟ قال : حصول النصر والفتح . فقيـل : وما ثواب العاصى ؟ قال : الخسارة فى الدنيا ، والعقاب فى العقبى ، كما دلت عليه سورة تبَّت .

« ســورة الاخـــلاص »

قال بعضهم : وضعت ههنا للوزان فى اللفظ بين فواصلها ومقطع سورة تبَّت.

وأقول : ظهر لى هنا غير الوزان فى اللفظ : أن هذه السورة متصلة بقل يا أيها الكافرون فى المعنى . ولهذا قيل : من أسمائها أيضاً الإخلاص . وقد قالوا: إنها اشتملت على التوحيد ، وهذه أيضا مشتملة عليه . ولهذا قرن بينهما فى

(١) أخرجه مسـلم عن ابن عباس : ٢٤٢/٨ ، ٢٤٣ . وفيها أنها آخر سورة نزلت .
(٢) الانتقـان : ٩٦/١ .

القراءة فى الفجر ، والطواف ، والضحى ، وسنة المغرب ، وصبح المسافر ، ومغرب ليلة الجمعة[1] .

وذلك أنه لما نفى عبادة ما يعبدون ، صرح هنا بلازم ذلك ، وهو أن معبوده أحد ، وأقام الدليل عليه بأنه صمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا يستحق العبادة إلا من كان كذلك ، وليس فى معبوداتهم ماهو كذلك .

وإنما فصل بين النظيرتين بالسورتين[2] لما تقدم من الحكمة ، وكأن إيلاءها سورة تبت ورد عليه بخصوصه .

« ســورة الفلق والناس »

أقول : هاتان السورتان نزلتا معاً ، كما فى الدلائل للبيهقى . فلذلك قُرنتا ، مع ما اشتركتا فيه من التسمية بالمعوذتين ، ومن الافتتاح بقل أعوذ ، وعقب بهما سورة الإخلاص، لأن الثلاثة سميت فى الحديث بالمعوذات ، وبالقوافل[3] .

وقدمت الفلق على الناس — وإن كانت أقصر منها — لمناسبة مقطعها

---

(1) اخرج الهيثمى فى مجمع الزوائد من ابن عمر : ١٢٠/٢ أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ فى الفجر سفرا بالكافرين والاخلاص . واخرج ابن حجر فى المطالب العالية : ٣٩٩/٣ عن النبى صلى الله عليه وسلم يقول بضعا وعشرين مرة : « نعم السورتان يقرأ فى الركعتين : الاحد الصمد ، وقل يا أيها الكافرون » واخرج عن أبى يعلى من حديث جبير بن مطعم أنه صلى الله عليه وسلم أمره أن يقرأ : الكافرون ، والنصر ، والاخلاص ، والمعوذتين (المصدر السابق : ٣٩٨/٣) .

(2) يعنى بين (الكافرين والاخلاص) بالنصر وتبت .

(3) الذى عثرت عليه حديث عبد الله بن خبيب عن أبيه قال : أصابنا طش وظلمة ، فانتظرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاخذ بيدى فقال : « قل » فسكت . فقال : قل . فقلت : ما أقول ؟ قال : قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسى وحين تصبح ثلاثا تكفك ، كل يوم مرتين» (مسند الامام أحمد: ٣١٢/٥ وأبوداود فى الادب ما يقول اذا أصبح : ١٧٦/٢ والنسائى فى الاستعاذة : ٢٥٠/٨ . والترمذى فى الدعوات : ٣٤٧/٩ وحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بهن كل ليلة ثلاث مرات (البخارى فى فضائل القرآن : ٢٣٣/٦) .
ونقل السيوطى عن السخاوى قوله : (وقوارع القرآن الايات التى يتعوذ بها ويتحصن ، سميت بذلك لانها تقرع الشيطان وتقمعه كآية الكرسى والمعوذتين) . الاتقان : ٢٠١/١ . أما كلمة (القوافل) التى ذكرها المؤلف فلم نعثر عليها فى الحديث النبوى ومصادره .

في الوزان لفواصل الإخلاص مع مقطع تبت[1] .

وهذا آخر مامن الله به على من استخراج مناسبات ترتيب السور ، وكله من مستنبطاتى ، ولم أعثر فيه على شىء لغيرى إلا النزر اليسير الذى صرحت بعزوى له ، فلله الحمد على ما ألهم ، والشكر على ما من به وأنعم ، سبحانك لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

ثم رأيت الإمام فخر الدين ذكر فى تفسيره كلاما لطيفا فى مناسبات هذه السور ، فقال فى سورة الكوثر :

اعلم أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها من السور ، وكالأصل لما بعدها .

أما الأول ، فلأنه تعالى جعل سورة الضحى فى مدح النبى ﷺ ، وتفصيل أحواله ، فذكر فى أولها ثلاثة أشياء تتعلق بنبوته . (ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى) «٣—٥» . ثم ختمها بثلاثة أحوال من أحواله فيما يتعلق بالدنيا : (ألم يجدك يتيماً فآوى . ووجدك ضالاً فهدى . ووجدك عائلاً فأغنى) «٦—٨» .

ثم ذكر فى سورة «ألم نشرح» أنه شرفه بثلاثة أشياء : شرح الصدر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر .

ثم شرفه فى سورة التين بثلاثة أشياء أنواع : أقسم ببلده ، وأخبر بخلاص أمته من النار بقوله : (إلا الذين آمنوا) «٦» . ووصولهم إلى الثواب بقوله : (فلهم أجر غير ممنون)«٦» .

وشرّفه فى سورة اقرأ بثلاثة أنواع : (اقرأ باسم ربك) . وقهر خصمه

(١) مقطع الفلق (حسد) مناسب لفواصل الاخلاص (أحد . الصمد . أحد) ومقطع تبت (مسد) وكلها متفقة فى الوزن .

بقوله : (فليدع ناديه . سندع الزبانية) «١٨» . وتخصيصه بالقرب فى قوله : (واسجد واقترب) «١٩» .

وشرفه فى سورة القدر بليلة القدر ، وفيها ثلاثة أنواع من الفضيلة : كونها خيراً من ألف شهر ، وتنزل الملائكة والروح فيها ، وكونها سلاماً حتى مطلع الفجر .

وشرفه فى (لم يكن) بثلاثة أشياء : أنهم خير البرية ، وجزاؤهم جنات ، ورضى عنهم .

وشرفه فى الزلزلة بثلاثة أنواع : إخبار الأرض بطاعة أمته ، ورؤيتهم أعمالهم ، ووصولهم إلى ثوابها حتى وزن الذرة .

وشرفه فى العاديات بإقسامه بخيل الغزاة من أمته ، ووصفها بثلاث صفات .

وشرفه فى القارعة بثقل موازين أمته ، وكونهم فى عيشة راضية ، ورؤيتهم أعداءهم فى نار حامية .

وفى ألهاكم التكاثر ، هدد المعرضين عن دينه بثلاثة : يرون الجحيم ، ثم يرونها عين اليقين ، ويسألون عن النعيم .

وشرفه فى سورة العصر بمدح أمته بثلاث : الإيمان ، والعمل الصالح ، وإرشاد الخلق إليه ، وهو : التواصى بالحق والصبر .

وشرفه فى سورة الهمزة بوعيد عدوه بثلاثة أشياء : ألا ينتفع بدنياه ، ويعذبه فى الحطمة ، ويغلق عليه .

وشرفه فى سورة الفيل بأن رد كيد عدوه بثلاث : بأن جعله فى تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل ، وجعلهم كعصف مأكول .

وشرفه فى سورة قريش بثلاث : تألف قومه ، وإطعامهم ، وأمنهم .

وشرفه فى الماعون بذم عدوه بثلاث : الدناءة ، واللؤم فى قوله . (فذلك الذى يدع اليتيم . ولايحض على طعام المسكين) «٢، ٣» . وترك تعظيم الخالق فى قوله : (فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون) «٤—٦» . وترك نفع الخلق فى قوله : (ويمنعون الماعون) «٦».

فلما شرفه فى هذه السور بهذه الوجوه العظيمة قال : (إنا أعطيناك الكوثر) . أى : هذه الفضائل المتكاثرة المذكورة فى هذه السور ، التى كل واحدة منها أعظم من ملك الدنيا بحذافيرها ، فاشتغل أنت بعبادة ربك ، إما بالنفس ، وهو قوله . (فصل لربك) وإما بالمال ، وهو قوله (وانحر) . وإما بإرشاد العباد إلى الأصلح ، وهو قوله : (قل يا أيها الكافرون . لاأعبد ما تعبدون) . الآيات . فثبت أن هذه السورة كالمتممة لما قبلها .

وأما كونها كالأصل لما بعدها فهو : أنه تعالى يأمره بعد هذه أن يكف عن أهل الدنيا جميعاً بقوله : (قل يا أيها الكافرون) . إلى آخر السورة . ويبطل أذاهم ، وذلك يقتضى نصرهم على أعدائهم ، لأن الطعن على الإنسان فى دينه أشد عليه من الطعن فى نفسه وزوجه ، وذلك مما يجبن عنه كل أحد من الخلق ، فإن موسى وهارون أرسلا إلى فرعون واحد فقالا : (إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى) «٢٠ : ٤٥» . ومحمد ﷺ مرسل إلى الخلق جميعاً ، فكان كل واحدمن الخلق كفرعون بالنسبة إليه . فدبر الله فى إزالة الخوف الشديد تدبيراً لطيفاً ، بأن قدم هذه السورة ، وأخبر فيها بإعطائه الخير الكثير ، ومن جملته أيضاً : الرئاسة ، ومفاتيح الدنيا ، فلا يلتفت إلى ما بأيديهم من زهرة الدنيا ، وذلك أدعى إلى مجاهدتهم بالعداوة ، والصدع بالحق ، لعدم تطلعه إلى مابأيديهم

ثم ذكر بعد سورة الكافرين سورة النصر ، فكأنه تعالى يقول ؛ وعدتك

بالخير الكثير ، وإتمام أمرك ، وأمرتك بإبطال أديانهم ، والبراءة من معبوداتهم ، فلما امتثلت أمرى أنجزت لك الوعد بالفتح والنصر ، وكثرة الأتباع ، بدخول الناس فى دين الله أفواجا .

ولما تم أمر الدعوة والشريعة ، شرع فى بيان مايتعلق بأحوال القلب والباطن

وذلك أن الطالب إما أن يكون طلبه مقصوراً على الدنيا ، فليس له إلا الذل والخسارة والهوان ، والمصير إلى النار ، وهو المراد من سورة تبت . وإما أن يكون طالباً للآخرة ، فأعظم أحواله أن تصير نفسه كالمرآة التى تنتقش فيها صور الموجودات .

وقد ثبت أن طريق الخلق فى معرفة الصانع على وجهين : منهم من قال : أعرف الصانع ، ثم أتوسل بمعرفته إلى معرفة مخلوقاته ، وهـذا هو الطريق الأشرف ، ومنهم من عكس[1] ، وهو طريق الجمهور .

ثم إنه سبحانه ختم كتابه المكرم بتلك الطريقة التى هى أشرف . فبدأ بذكر صفات الله ، وشرح جلاله ، فى سورة الإخلاص . ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته فى الفلق ، ثم ختم بذكر مراتب النفس الإنسانية فى الناس ، وعندذاك ختم الكتاب . فسبحان من أرشد العقول إلى معرفة هـذه الأسرار الشريفة فى كتابه المكرم . هذا كلام الإمام .

ثم قال فى سورة الفلق : سمعت بعض العارفين يقول : لما شرح الله سبحانه

---

(١) طريق الجمهور يترتب عليه : أن تكون المخلوقات دليلا على وجود الخالق . وطريق الخاصة يترتب عليه أن يكون الله دليلا على وجود خلقه . الاول معرفة صعودية ، والثانى معرفة نزولية .

أمر الإلهية فى سورة الإخلاص ، ذكر هاتين السورتين عقبها فى شرح مراتب الخلق على ما قال : (ألا له الخلق والأمر) .

فعالم الأمر كله خيرات محضة ، بريئة عن الشرور والآفات ، أما عالم الخلق فهو الأجسام الكثيفة ، والجسمانيات . فلا جرم قال فى المطلع : (قل أعوذ برب الفلق . من شر ماخلق) «١ ، ٢» .

ثم الأجسام إما أبدية ، وكلها خيرات محضة ، لأنها بريئة عن الاختلافات والفطور ، على ما قال : (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور) «٦٧ : ٣» . وإما عنصرية ، وهى إما جمادات ، فهى خالية عن جميع القوى النفسانية ، فالظلمات فيها خالصة ، والأنوار عنها زائلة ، وهو المراد من قوله : (ومن شر غاسق إذا وقب) «١١٣ : ٣» . وإما نبات ، والقوة العادلة هى التى تزيد فى الطول والعمق معاً ، فهذه القوة النباتية كأنها تنفث فى العقدة . وإما حيوان ، وهو محل القوى التى تمنع الروح الإنسانية عن الانصباب إلى عالم الغيب ، والاشتغال بقدس جلال الله ، وهو المراد بقوله : (ومن شر حاسد إذا حسد) .

ثم إنه لم يبق من السفليات بعد هذه المرتبة سوى النفس الإنسانية ، وهى المستفيدة ، فلا يكون مستفاداً منها ، فلا جرم قطع هذه السورة ، وذكر بعدها فى سورة الناس مراتب ودرجات النفس الإنسانية . انتهى .

ولم يبين المراتب المشار إليها . وقد بينها ابن الزملكانى فى أسراره[1] فقال :

إضافة (رب) إلى (الناس) تؤذن بأن المراد بالناس : الأطفال ، لأن الرب من : ربه يربه ، وهم إلى التربية أحوج . وإضافة (ملك) إلى (الناس) .

---

(١) هو كتاب « نهاية التأميل في أسرار التنزيل » خط (٤٧١) تفسير تيمور بدار الكتب المصرية .

تؤذن بإرادة الشباب به ، إذ لفظ (ملك) يؤذن بالسياسة والعزة ، والشبان إليها أحوج . وإضافة (إله) إلى (الناس) تؤذن بأن المراد به الشيوخ ، لأن ذاته مستحقة للطاعة والعبادة ، وهم أقرب . وقوله : (يوسوس فى صدور الناس) يؤذن بأن المراد بالناس : العلماء والعباد ، لأن الوسوسة غالباً عن الشُّبَه . وقوله: (من الجنة والناس) يؤذن بأن المراد بالناس : الأشرار . وهم شياطين الإنس الذين يوسوسون لهم . والله تعالى أعلم[1].

* * *

تم بحمد الله تعالى وتوفيقه

قال مؤلفه نفعنا الله ببركاته ، وأمدنا من نفحاته : فرغت من تأليفه يوم الأحد ، الثالث عشر من شعبان سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

---

(١) ذكر تاج القراء الكرمانى هذه المعانى مختصرة فى اسرار التكرار فى القرآن : ٢١٥ ولم ينسبها الى أحد ولم يشر ابن الزملكانى الى الكرمانى رغم تأخره عنه .

مصادر التحقيق

مصـــادر التحقيق

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى .

٣ ـ ارشاد الرحمن فى الناسخ والمنسوخ والمتشابه وأسباب النزول وتجويد القرآن للأجهودى (خط) الأزهرية بمصر .

٤ ـ أسرار التكرار فى القرآن لتاج القراء الكرمانى .

٥ ـ الأمد الأقصى لأبى زيد الدبوسى (خط) دار الكتب المصريه .

٦ ـ البدر الطالع للشوكانى .

٧ ـ بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى .

٨ ـ تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

٩ ـ تفسير البيضاوى .

١٠ ـ التكملة لابن الأبار .

١١ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .

١٢ ـ جامع البيان لابن جرير الطبرى .

١٣ ـ حقائق التفسير لأبى عبد الرحمن السلمى (خط) دار الكتب المصرية .

١٤ ـ خواص القرآن الكريم لأبى حامد الغزالى .

١٥ ـ الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلانى .

١٦ ـ الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى .

١٧ ـ سنن أبى داود .

١٨ ـ سنن الترمذى .

١٩ ـ سنن النسائى .

٢٠ ـ سنن الدارمى .

٢١ ـ سنن ابن ماجة .

٢٢ – سيرة النبى صلى الله عليه وسلم لابن هشام •

٢٣ – شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد •

٢٤ – شعب الايمان للبيهقى •

٢٥ – شرح الكشاف للطيبى (خط) الأزهرية بمصر •

٢٦ – صحيح البخارى •

٢٧ – صحيح مسلم •

٢٨ – الضعفاء والوضاعون لابن الجوزى (خط) الأزهرية •

٢٩ – الضعفاء لشمس الدين الذهبى •

٣٠ – طبقات القراء للجزرى •

٣١ – العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية لابن الجوزى (خط) الأزهرية بمصر •

٣٢ – الكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشرى •

٣٣ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمى •

٣٤ – ميزان الاعتدال للذهبى •

٣٥ – المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابورى •

٣٦ – مسند الامام أحمد بن حنبل •

٣٧ – المطالب العالية فى زوائد المسانيد الثمانية لابن حجر العسقلانى

٣٨ – مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى •

٣٩ – نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى (خط) الأزهرية بمصر •

٤٠ – نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلانى •

٤١ – وفيات الأعيان لابن خلكان •

* * *

فهرس
الحديث النبوي والآثار

فهرس الحديث النبوى والآثار

الحـــديث	الصفحة
٢١ ـ سورة النصر من أواخر ما نزل بالمدينة	١٦٠
٢٢ ـ الصراط المستقيم كتاب الله	٧٧
٢٣ ـ صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسبع الطوال فى ركعة	٧٠
٢٤ ـ طرأ على حزبى من القرآن	٧٠
٢٥ ـ افتقر ربك فسأل ربه القرض	٨٨
٢٦ ـ قال اليهود : أوتينا علما كثيرا ٠٠ الحديث	١١٥
٢٨ ـ اقرأوا الزهراوين : البقرة وآل عمران	٧٠ ، ٩٣
٢٩ ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع المفصل فى ركعة	٧٠
٣٠ ـ لما فرغ الله من الخلق ، وقضى القضية ٠٠ الحديث	١٠١
٣١ ـ ما حملكم على أن عمدتم الى الأنفال وهى من المثانى ٠٠ الحديث	١٠٣
٣٢ ـ من سره أن ينظر الى القيامة كأنه رأى عين ٠٠ الحديث	١٤٧
٣٣ ـ نزول طه بعد مريم بعد الكهف	١١٦
٣٤ ـ نزول الشعراء ثم طه ثم القصص	١١٧
٣٥ ـ نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا	١١٧
٣٦ ـ النجاشى وأصحابه من مؤمنى أهل الكتاب	٨٢
٣٧ ـ وفد نجران	٨٢
٣٨ ـ اليقين مفسر بالموت	١١١
٣٩ ـ يوم حمراء الأسد	٩٠
٤٠ ـ يونس نزلت بعد هود ثم يوسف	١٠٩

* * *

محتويات الكتاب

❋ ❋ ❋